

قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم

تَهْيِيد :

لا مرية أن القرآن الكريم غني بالقواعد المنهجية اللازمة لضبط العمل الدعوي، وترشيد ممارسات الدعاة العملية في سائر ميادين الدعوة.

ومن البديهي أن نجاح أي عمل مرهون بنجاح منهجيته، ونجاح منهجيته مرهون كذلك بقوة التصور والإدراك اللازمين لفقه الواقع فقهاً ينسجم مع طبيعة العمل الدعوي، وهو فقه يمتد ليشمل عناصر متعددة تلزم لصياغة القواعد المنهجية الراشدة، ومنها:

١ - فقه الأحداث والوقائع والمؤثرات، وما يجب أن يقدم وما لا يجب، وما ينبغي فعله وما لا ينبغي، وفقه الأعراف والعادات والتقاليد، ومدي انسجام الإنسان معها وانفعاله بها، ومدي استعدادها للتخلص منها والاستمساك بها.

٢ - فقه طبيعة الإنسان "كمدعو"^(١)، ومن ذلك فقه طبيعة التكوين، ومعرفة مواطن القوة فيه والضعف، والدراية بطبيعة التأثير والتأثر، وعوامل القبول، ودوافع الرفض، وتفهم نوازع الانتقاد، والثورة، واستبصار جوانب الخير فيه والشر، ومعرفة روافد الطمأنينة الذاتية وعوامل اليأس والقنوط، ومراعاة تفاوت الإدراك ومعرفة مدي جموده ومرونته، وتردده وثباته، وإمكانية إقناعه ودرجة اقتناعه، وضرورة معرفة توجساته وآماله، وقوة إقدامه وإحجامه.

وهذا كله لازم لمعرفة صياغة الدليل ومعرفة مدي فعاليته، ومعرفة كيفية اقتناع المدعوبه وطرق إقناعه.

(١) وفقه طبيعة الإنسان كمدعو جزء من فقه طبيعة الواقع، لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، كما لا يمكن فهم الواقع بمعزل عن الإنسان ولا فهم الإنسان بمعزل عن الواقع.

إذ أن ملاك الأمر في عملية "الإقناع والاعتناع" هو "إنشاء الدليل" وإن شئت فقل "بناء الأدلة"، وطالما كان الدليل قويًا كانت عملية الاستدلال على قضايا المدعو إليه قوية، وضعفها مرهون - كما لا يخفى - بضعفه.

يُبد أن القواعد المنهجية الاستدلالية التي نستنبطها من القرآن الكريم تستلهم قوتها من قوته، وشموليتها من شموليته، وسبحان الله تعالى القائل.

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

والحكيم هو الذي يضع الشيء في موضعه، ويقدره قدره، ويحكم تدبيره، ويعرف ما يترتب عليه من آثار^(٢).

والله تعالى يقول ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٣).

(١) سورة فصلت (٤٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٧ / ١١٣)، وتفسير محاسن التأويل للقاسمي، تخريج محمد فؤاد عبد الباقي (٤ /

٢٨٠) دار الفكر، بيروت، ط (٢) ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م، والنكت والعيون للهاوردي، مراجعة

وتعليق: السيد عبد المقصود عبد الرحيم (٥ / ١٨٦) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط (١)

١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

(٣) سورة الملك (١٤).

المبحث الأول

صدارة النص القرآني والحديث الشريف

من روائع قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم "صدارة النص القرآني المبارك والحديث الشريف" على أن هذه القاعدة تأتي على رأس قواعد التأسيس والبناء لمنهج دعوي راشد ومنضبط، ذلك أن كل القواعد تنبثق من معين القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي تمتد لتضرب جذورها في معين الوحي الإلهي، وتقتطف ثمارها من حكمة النبوة، وذلك لما يتمتعان به من الكمال المطلق.

على أننا نقصر دراستنا هنا على القرآن الكريم باعتباره موضوع البحث، ولأننا لا نستطيع الجمع هنا بين قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم والسنة الشريفة. لكننا نؤمى هنا إلى صدارة النص القرآني والحديث الشريف باعتبار إرساء القرآن الكريم لهذه القاعدة في منهج الاستدلال.

صدارة الكامل ضرورة عقلية :

القصور لازمة من لوازم التفكير العقلي، لأن العقل يعتمد في مداركه على وسائل محدودة الإدراك، ضيقة الأفق، ومعرفة العقل سطحية النظرة، وإن تعمق العقل في بعض الأحيان في مسائل التفكير والتأمل، وقضايا النظر والاستدلال، فإنه ما زال يعجز عن إدراك ذاته، وإماطة اللثام عن جوانب مجهولة في طبيعة إدراكه، من ثم يعجز عن إدراك حقيقة كثير من الأشياء، وخاصة ما غابت عنه، أو استترت، أو تأبّت على الظهور له، ومع تقدم العمل العقلي وتفوقه إذا ما قورن بسائر المخلوقات، ومع نهوضه ورقيه، ومع اكتشافه لمساحات من المجهول في الكون، إلا أنه يقف عاجزاً عن إدراك جوانب الغيب أو "اللامنظور".

ومع قدرته على القياس والترجيح، والتميز بين الحسن والقبيح، والحق والباطل، والغث السمين، وبناء المقدمات وترتيب النتائج، وإدراك العلل، وإزالة الاشتباه والوصول إلى معارف ظاهرة بينة إلا أن شيئاً من ذلك كله لم يكن منحة ذاتية، وإنما كان منحةً ووهباً من الخالق سبحانه وتعالى للعقل ليدرك حجم إدراكه، وليدرك قيمة رسالته في الحياة، ويدرك دلالات الخلق على عبودية الخالق، وليكون منوطاً للتكليف، ووعاءاً للرسالة.

والعقل يعترف بالعجز عن إدراك المزيد فيما يؤمن به وما يراه ويجسه إلا بإعانة وتوفيق من جهة أخرى، وأو بالأحرى من مصدر تتصف معارفه بالكمال والدقة، والعمق والإحاطة، والشمول والانفتاح على جوانب المرئي والمشاهد، والمستتر والغائب، ليزوده بوسائل الإدراك، ويكشف له حقيقة المدركات، لتتفتح المعارف من دائرة المجهول، فتضيئ مساحة المجهول أمام حكمة الوحي.

وهذه بديهية عقلية ونتيجة حتمية لا ينكرها إلا معاند ومكابّر، ذلك أن من بديهيات العقل أن القاصر يحتاج إلى كامل، والعاجز يفتقر إلى قوي، والضعيف يفتقر إلى قادر، والجاهل إلى معلم ومعارف العقل في مجملها تتصف بالعجز والضعف، وتفتقر إلى مصدر معرفي يحقق لها ما لم تستطع تحقيقه، فضلاً عن أن وجود العقل مفتقر إلى موجد.

من ثم كانت حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، وإنزال الوحي الإلهي بالرسالات لهداية العقل إلى الحق، والتفريق بينه وبين الباطل وبيان الغواية من الرشاد، والهداية من الضلال، والصدق من الكذب والحسن من القبيح، والصالح من الفاسد.

إنه يبين للعقل جملاً من المتناقضات^(١)، ويوضح له شارات كل مناقض لنقيضه،

(١) وسوف نفرد لهذه القضية مبحثاً خاصاً في ثنايا هذا البحث، والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل..

ومقابل لمقابله بما يساعده على الفصل في الحكم، وقطع سبل الالتباس، وسد منافذ التردد والحيرة والشك والارتياب.

فالعقل يقطع بالمعطيات القطعية التي يرد بها النص القرآني، وينسجم معها، ويتباري في الدفاع عن قناعاتها، والترويج لقطعياتها.

هذا فيما يتعلق بدلالاته القطعية، أما ما يتعلق بدلالاته الظنية من المعاني فهو إعطاء العقل فسحة لتدبر آياته ومعانيه، وضبط اجتهاداته ومداركه.

ذلك أن (دلالات آيات القرآن الكريم إما قطعية وإما ظنية .. فالنص القطعي الدلالة هو ما دل على معنى متعين فهمه منه ولا يحتمل تأويلاً ولا مجال لفهم معنى غيره منه مثل ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾^(١).

وأما النص الظني الدلالة فهو ما دل على معنى، ولكن يحتمل أن يؤول ويصرف عن هذا المعنى ويراد منه غيره، ومثل قوله ﷺ ﴿وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٢)، فيحتمل أن يراد بالقرء ثلاث أطهار أو ثلاث حيضات، على أن دلالاته من جهة مصدريته وطريق نقله إلينا فهي قطعية^(٣).

وغاية ما نريده هو تقرير هذه القاعدة (لا يوجد معقولٌ صريح يخالف المنقول الصحيح)^(٤).

من ثم كان لابد للعقل أن يسلم بحاكمية الوحي الإلهي وصدارته. ولعلنا ندرك من هذا قيمة صدارة النص الإلهي بلفظه ومعناه (القرآن الكريم) أو بمعناه دون لفظه^(٥) (السنة الشريفة) لما يتحقق به من الكمال والعصمة، وما تتحقق به معانية ودلالته من الدقة والإحاطة والثبوت والقطع.

(١) سورة النساء جزء من الآية (١٢).

(٢) سورة البقرة جزء من الآية (٢٢٨).

(٣) علم أصول الفقه: أ/ عبد الوهاب خلاف (ص ٣٤، ٣٥) مرجع سابق بتصرف يسير..

(٤) شمول النصوص لأحكام أفعال العباد لابن تيمية، تحقيق: صالح المهندس (ص ١٢) مطبوعات وزارة الأوقاف بقطر، ط (١) ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م..

(٥) علم أصول الفقه. الأستاذ عبد الوهاب خلاف (ص ٢٢) مرجع سابق.

تأصيل القاعدة:

عندما نقرأ أي القرآن الكريم، وندبر معانيها، ونتفهم أوجه فصاحتها وبلاغتها، وسلامة ذوقها، ودقة أساليبها، نجد أنها تتحدث عن حتمية صدارة النص القرآني، وكذا حتمية صدارة الحديث الشريف لكن في مرتبة تالية لنص القرآن الكريم.

ومن الأدلة على ذلك قول الله تعالى:

١ - ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾^(١).

٢ - ﴿ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

٣ - ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٣).

٤ - ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٤).

٥ - ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾^(٥).

٦ - ﴿وَمَنْ لَمْ تَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٦).

٧ - ﴿وَمَنْ لَمْ تَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٧).

٨ - ﴿وَمَنْ لَمْ تَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٨).

(١) سورة الأنعام (٥٧).

(٢) سورة الممتحنة (١٠).

(٣) سورة المائدة (٥٠).

(٤) سورة المائدة (٤٨).

(٥) سورة المائدة (٤٩).

(٦) سورة المائدة (٤٤).

(٧) سورة المائدة (٤٥).

(٨) سورة المائدة (٤٧).

٩ - ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١).

١٠ - ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُضِّمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٢).

١١ - ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣).

١٢ - ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٤).

١٣ - ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾^(٥).

١٤ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٦).

١٥ - ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٧).

١٦ - ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾^(٨).

١٧ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنْتَرِعُوا﴾^(٩).

١٨ - ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(١٠).

(١) سورة النساء (١١٣).

(٢) سورة يونس (١٠٩).

(٣) سورة الجمعة (٢).

(٤) سورة آل عمران (١٦٤).

(٥) سورة آل عمران (٣٢).

(٦) سورة آل عمران (١٣٢).

(٧) سورة النساء (٨٠).

(٨) سورة الأنفال (٢٠).

(٩) سورة الأنفال (٤٦).

(١٠) سورة المائدة (٩٢).

١٩- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(١).

٢٠- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

دلالات التاصيل في هذه الآيات:

عندما نتأمل هذه الآيات الكريمة نجد من شارات الدلالة ما يلي:

أولاً: القرآن الكريم كتاب نور وهداية:

بمعنى أنه جاء هادياً للإنسان .. روحه وعقله .. نفسه وجسده .. دنياه وآخرته، وهو مخرج للناس من الظلمات بمفاهيمها المختلفة، ومقاييسها المتعددة، وصورها الضاربة في الضلال والغواية، وأسبابها الناشئة عن إعاقة العقل، وقلة التأمل والتدبر، وندرة التفكير والتعقل، مما دفع الناس إلى ترك الحق إلى الباطل، وعدم القناعة بمعطياته، واستبدال قضايا الوحي بفلسفات بشرية قاصرة، تستمد جذورها تارة من الوثنيات، وثانية من الماديات والطبيعات، وثالثة من الإلحاد، فطمست بذلك معالم الحق، وأضلت كثيراً من الخلق.

إنه إذن جاء لتزكية البشر بتعليمهم تعاليم الوحي الإلهي الهادي، إلى الحق، المنجي من الضلال والانحراف .. الضابط للتفكير والحس والوعي.

ثانياً: القرآن الكريم فرقان بين الحق والباطل:

لذا سماه الوحي الإلهي فرقاناً، لأنه يفرق بين متناقضات الاعتقاد، ومتقابلات التفكير بصورها الإيجابية والسلبية، فهو الحد الفاصل بين الحق والباطل، والنور والظلمة^(٣)، مما يجعل القرآن الكريم أهلاً للإنذار والبشارة والوعد والوعيد.

(١) سورة الفرقان (١).

(٢) سورة المائدة (١٦).

(٣) راجع: مقدمة التفسير لابن تيمية (١٦ / ٧) وما بعدها، دار الحرمين، بدون تاريخ .

وقد وصفه الله تعالى بقوله ﴿وَإِنَّهُ لَكَتَبٌ عَزِيزٌ﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ^(١).

ثالثاً: ضرورة الاحتكام إلى القرآن الكريم:

تأسيساً على قيم كمال القرآن الكريم وإحاطته وعلمه وشموله، وعلى كونه فرقاناً بين الحق والباطل، والنور والظلمة، وعلى أنه لا يأتيه باطل، ولا يحوم حوله شك، وطالما أنه يمد الإنسان بمعارف دقيقة. وفي العقول لا توجد مقدمة بدون نتيجة .. وكل سبب له مسبب ومفوضٌ أيضاً إلى نتيجة .. والعقل يجد من هذا ما يقنعه ويأنس به ويؤمن له.

وقد أتى القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي بهذه القاعدة على صور متعددة منها مايلي:

[أ] ربط الأسباب بالمسببات:

فكل مسبب لابد له من سبب، ولا ينكر هذا إلا جاهل مكابر، لأن العقول قاضية به .. منتهية إليه .. والأمور تصير بأسبابها، والكون قائم بأسبابه، ولا عبرة بمن شذ عن هذا.

التأصيل:

قال الله تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

وقال تعالى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٣).

(١) سورة فصلت (٤٠، ٤١).

(٢) سورة المائدة (٣٨).

(٣) سورة البقرة (٢٢٥).

وقال تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

وقال تعالى ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٠﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ أَكَلُوا اللَّيْسَ﴾^(٣).

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٤).

﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٥).

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٦).

يقينية عن قضاياه الكبرى أو الصغرى، وطالما أنه يختزل عنصر الزمن والمكان، ويعجز القوي والمدارك، ولأنه يحارب الظلم والجور والفساد والفسوق، ويحارب الظلم الاجتماعي، ويعمل على تحقيق السلم والأمن الاجتماعيين.

طالما كان الأمر كذلك، وتأسيساً على ما سبق، فمن البديهي - فضلاً عن كونه

(١) سورة البقرة (٢٨١).

(٢) سورة الأنعام (٧٠).

(٣) سورة إبراهيم (٥١، ٥٢).

(٤) سورة الروم (٤١).

(٥) سورة الشورى (٣٠).

(٦) سورة يونس (٢٧).

حكمًا شرعيًا - أن يحتكم الإنسان إليه في كل شئون حياته، لضبط مسيراته العقدية ومسيرته الذاتية، وضبط عمليات الاستدلال التي يقوم بها تأييدًا أو معارضة، إثباتًا أو نفيًا.

رابعاً: صدارة النص القرآني والحديث الشريف:

تأسيسًا على ما سبق بيانه - أيضًا - وطالما أن القرآن الكريم يتحقق بهذه الخصائص من حيث كماله المصدري والذاتي، ووجوب الاحتكام إليه، فإنه يجب أن يتحقق بالصدارة، وليس لكائن من كان أن ينال من صدارته ورتبته، فهو مصدر الإسلام الأصيل، وهو الذي أذن للسنة بأن تليه في الرتبة والصدارة، وأوجب على المسلمين ضرورة العمل بهما والاحتكام إليهما في المنازعات، وفض الخصومة والجدل.

فالاحتكام إليهما يعصم الذهن من الخطأ، ويقوي مدراك الإنسان، ويفتح عقله على آفاق أرحب من التفكير المنضبط، والإدراك الواعي، اللازمين لبناء استدلال راشد.

وعكس هذه القاعدة خطأ في المنهج وعكس للدليل، ولا يخفي ما في ذلك من خطورة على عملية الإدراك (فلا يجوز أن يجز القرآن جرًا، ليؤيد - رغم أنفه - مدرسة من مدارس الاعتقاد أو الفكر أو الفقه أو السلوك، فإن هذا قلب للحقائق، وتزييف للأمور، وتأخير لما حقه أن يقدم، وتقديم لما حقه أن يؤخر، فقد أمسى الحاكم محكومًا، والأصل فرعًا، والمتبوع تابعًا، وهذا من أكبر أسباب الضلال ومنازع الزيغ، ومصادر الانحراف عن سواء الصراط)^(١).

ولا يخفي ما لهذا من خطورة على منهجية الاستدلال.

(١) المنهج الأمثل في التفسير : د/ يوسف القرضاوي، بحث نشر مجلة المسلم المعاصر (ص ٤١) العدد (٨٣) السنة (٢١) ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

المبحث الثاني

التعريفات

مما تميز به منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم، أنه راعي التعريف بما يُستدل عليه، وكذلك ما يستدل به. ويقصد بما يستدل عليه "المدعو إليه" وهو الدين الإسلامي. ويقصد بما يُستدل به الدليل الذي يستاق من الواقع تارة، ومن الأخبار تارة أخرى، وبالقياس^(١) تارة ثالثة.

وتأتي أهمية "التعريف" في موطن الاستدلال بالقضية ذات الصلة من حيث أنه يُراعي ضرورة إمطة اللثام عن مضامين القضية لتعطي صورة واضحة المعالم عنها في خطوة أولى للتعرف على الشئ من حيث ماهية والكيونة.

وهذا من لوازم عملية "الإقناع" و "الاقتناع" لأن الإنسان لا يقتنع إلا بما يعرف، ولا يعرف معرفة حقيقية إلا ما فهم، وليس كل ما فهم يُقطع به إلا بيقين. وحيث أن الإقناع والاقتناع مفاعلة بين طرفين يريد أحدهما إقناع الآخر بشئ ما.

ومن المستحيل أن يتم شئ من ذلك بدون إدراك كامل ومعرفة تامة بطبيعة هذا الشئ لضمان إجراء هاتين العمليتين. وهذه قضية منطقية.

لذا نجد القرآن الكريم يركز على التعريفات لما لها من أهمية بالغة على هذا النحو، وإلا فلن يكون هناك اقتناع من أحد بأي من قضايا الدين.

(١) ويقصد بالقياس هنا قياس المعنويات المجردة بالمحسوسات لتقريب المعاني وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ سورة الأعراف (٢٩).

التعريف بالشئ لإقامة الحجة :

وترجع أهمية قاعدة "التعريف" إلى أنها بمثابة إقامة الحجة على الخلق بعد سوق البراهين الواضحة، والحجج القاطعة لهم، إذ لا عذر لمعتذر يجهل، ولا حجة لمحتج بعد توضيح مهاييا الأشياء وبيان أحكامها، لذا كان التعريف بالشئ حجة على المنكرين والمعارضين، وإلزاماً للطائعين.

قال الله تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^(١).

وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ^(٣).

وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٤).

وكان أولي بهم أن يؤمنوا به لأنهم يعرفونه، لكن إنكاره بعد معرفته صار أقوى الحجج على إدانتهم واستحقاقهم لعنة الله تعالى.

وكون الله تعالى يرينا الآيات لنعرفها، فليس لمجرد المعرفة بها، وإنما لإقامة الحجة علينا إن خالفنا أمره تعالى، وإلزامنا بالطاعة إن آمنّا به تعالى وصدقناه سبحانه.

وينكر القرآن الكريم على المنكرين إنكارهم للرسول ﷺ لأنهم تنكروا له بعد معرفتهم به. ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾^(٥).

من ثم يبقى فهم الشئ ومعرفته ضرورة تفرض نفسها وبإلحاح على عملية الاستدلال لضمان نجاحها.

(١) سورة النمل (٩٣).

(٢) سورة البقرة (١٤٦، ١٤٧).

(٣) سورة البقرة (٨٩).

(٤) سورة المؤمنون (٢٣).

نماذج التعريفات

أولاً: التعريف بالمعبود الحق:

كان من الطبيعي وفقاً للسنن الإلهية في الكون أن يرسل الله تعالى رسولاً إلى البشر بدين يعرفهم بالإله المعبود بلغاتهم، ويتعبد لهم بجوانب عقدية وتشريعية وأخلاقية^(١) تستقيم بها رؤاهم، وتصوراتهم لطبيعة عبادته، وتصحيح عقيدتهم في الإله.

وقد بعث رسول الله محمد ﷺ في بيئة، بل في ظروف عالمية فسدت فيها تصورات الناس عن الإله، وانحرفت فيها عقيدتهم فيه حتى تشبعت بالوثنية في أحيان، واختلطت صفات الإله بصفات البشر في أحيان أخرى، فقد هبط فيها تصور الألوهية حتى أنزل الإله فيها من عليائه إلى مكانة لا تليق، بل رفع فيها البشر وأنزل منزلة الإله في تخبط، واضمحلال فهم، وسوء اعتقاد، كما كان الحال في النصرانية^(٢).

وخلعت على الإله سبحانه أوصاف لا تليق به مثل البخل والأنانية، والندم، واللعب مع حواء، ومذاكرة التلمود مع الحاخامات والنزول إلى الأرض، والظهور للفساق والماجنين، ومخاطبتهم عن طريق الرؤي، ومجالسة الأنبياء والأكل معهم وكذا الاستراحة في مكان إقامتهم، كما كان الحال في اليهودية^(٣).

إضافة إلى "التعددية" أو "الإثنيية" التي كانت سائدة في بعض الديانات القديمة، والتي ظلت منتشرة حتى زمن البعثة الشريفة، بل وما زالت بقاياها حتى الآن عند طائفة من البشر يدينون بالزرادشتية^(٤).

(١) راجع في هذا بحث الإنسان والكون . د/ عبد المجيد النجار . نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ٢١) ع (٧٧) س (٢٠) ربيع الأول ١٤١٦ هـ / أغسطس ١٩٩٥ م .

(٢) راجع : الأسفار المقدسة في الأديان السابقة على الإسلام (ص ٢٦) نهضة مصر .

(٣) الكتاب المقدس العهد القديم سفر التكوين إصحاح ١٨ فقرة (١) وما بعدها، وأناجيل العهد الجديد.

(٤) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: د/ حسن إبراهيم حسن ٩٦/١ وما بعدها، مكتبة النهضة المصرية، ط (٧) ١٩٦٤ م.

إلى جانب الانحرافات العقديّة في جانب الإلهيات في ديانات أخرى كالمزدكية والمناوية، وبالإضافة إلى الوثنية التي وجدت طريقها إلى البيئة العربيّة حتى صنّع الإله من العجوى ليُعبَد، ثم يؤكل وقت الجوع^(١).

في ظل هذه التصورات العقديّة الفاسدة والممارسات التعبدية المنحرفة كان لابد من تصحيح التصورات لاستقامة الاعتقاد، وتقويم الاعوجاج.

من ثم جاء القرآن الكريم ليركز على التعريف بالإله المعبود تعريفاً يتعلق بالذات وبالصفات لنفي التوهّمات، ودفع هذه التصورات الفاسدة وبيان بطلانها.

[أ] التعريف بالذات الإلهية:

جاء تعريف القرآن الكيم بالذات الإلهية بأنها ذات غيبية مطلقة لا تقيد بقيود الزمان والمكان، ولا تخضع لقياس، فهي كل كامل يدرك ولا يُدرك .. يؤثّر ولا يتأثّر، ويؤكد التعريف بالذات الإلهية أن قمة العبادة أن تعبد ذاتاً غيبية لا تُرى.

فالله تعالى غيب مطلق، لكن آثاره واضحة نشاهدها في خلقه، نشاهدها في أسرار الكون الفسيح، كما نلمسها في أسرار النفس الإنسانية وجوانبها التي يكتنفها الغموض، وتحيط بها الأسرار من كل جانب.

قال الله تعالى ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (٢). (والتعبير بما يدل على اللطف لمناسبة ما لا يُدرك تأكيد للمعنى) (٣).

فالله تعالى ذات لا تُرك، لأنه كل كامل، وأني لناقص أن يُدرك كاملاً؟! .. أئي لمحدود الإدراك أن يدرك كامل الإدراك؟!

(١) وقد قضى الرسول ﷺ على كل المظاهر الوثنية في البيئة العربية عام الفتح بتحطيم الأصنام حول الكعبة. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي (١/ ٤٨٠) دار الغد العربي، ط (١) ١٩٩٦ م.

(٢) سورة الأنعام (١٠٢، ١٠٣).

(٣) التحرير في علم التفسير للإمام السيوطي، تحقيق: د / زهير عثمان (٢ ٤٨).

من ثم قال رسول الله ﷺ: "تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في ذاته الله فإنكم لن تقدرُوا قدره"^(١).

وقد استدلل الإمام محمد عبده بهذا الحديث الشريف على أن الله تعالى (لا تدرك كنهه العقول، ولا تحوم عليه الأوهام)^(٢).

فالتفكير في ذاته ممتنع على العقل البشري، ولذا كان البحث فيه يعد في نظره عبثاً ومهلكة، لأنه سعي إلى ما لا يدرك.

يقول محمد عبده: "ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل .. ولكن لا يهتدي إليه النظر وحده، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصفاً بها اتباعاً لما قرره الشرع).

وشأن الإمام محمد عبده في هذا شأن ابن خلدون.

وكون ذات الله غيبية لا يبرر لنا عدم الاعتراف به، ولا يُعِيننا ذلك عن عبادته سبحانه، فإن أدلة وجوده منصوبة في الكون من حولنا بل في ذواتنا، وإن كان الله تعالى لا يحتاج إلى دليل لإثبات وجوده، وإنما تنصب الأدلة لنا نحن المخلوقين الضعفاء العاجزين محدودي الإدراك لمعرفة أن عبادتنا ليست لإله وهمي، وإنما لأله متحقق بالوجود، وأنها لن تضيع سُدي.

ألا يكفيننا أنه تعالى يرانا .. يخبرنا عما يدور بأنفسنا .. يدبر أمورنا .. يصيّر الكون ويسيره من أجلنا .. يكشف لنا أسرار قدرته وآيات عظمته .. ويحيطننا برعايته.

إنه يرانا في ظلمة الليل البهيم .. يرى أعيننا وهي تتقلب في ظلام الليل نخالها تنظر إليه وهي لا تراه .. في خضوع وخشوع .. في تضرع وابتهاال .. فكيف لا نعبده؟!!

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٧١) دار التراث بدون تاريخ، وقال رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن ابن عمر مرفوعاً..

(٢) منهج محمد عبده في دراسة العقيدة: د/ مني أبوزيد، بحث نشر بمجلة المسلم المعاصر (ص ١٤٠) السنة (٢٩) العدد (٧٥-٧٦) رجب ١٤١٦هـ / فبراير ١٩٩٥م.

ولقد صدق القائل:

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تائب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

لقد أدرك قائل هذه الآيات صدق العقيدة في ذات تتصف بهذه الصفات .. وفي نفس تحققت بمقام العبودية .. وأدركت قمة التعبد.

إنها ذات لا تلمس ولا تُمس فتكسر مثلما يحدث للأصنام !! حاشا لله .. قادرة لا تقهر فتؤكل مثلما تؤكل آلهة العجوى !! واحدة لا تنازع في ملكها فتعارض مثلما يحدث من صراع متوهم بين آلهة النور وآلهة الظلم، أو بين آلهة الخير وآلهة الشر .. غنية لا تفتقر .. كريمة لا تبخل .. ومريدة لا تندم .. وعالمة لا تجهل، مثلما وصف اليهود إلههم !!

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

الإله الخالق:

إنه تعالى - كما تنبئنا الآيات - (خلق كل شئ) ومن لوازم الخلق: العلم .. إذ لا خلق عن جهل، والإرادة .. إذ لا خلق بدون قصد، والقدرة .. إذ لا خلق عن عجز .. والإحاطة .. إذ لا خلق مع قصور أو تفريط .

وكل ما في الكون دق أو كبر .. عظم أو صغر .. رُئي أو استتر حضر أو غاب .. شوهد أو لم يشاهد .. إنما هو من خلق الله تعالى .

ولقد صدق الله سبحانه إذ قال: ﴿ أَفَمَنْ تَخْلُقُ كَمَنْ لَا تَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(١).

وهو تعالى - كما تنبئنا الآيات - (بكل شئ وكيل) وكيل بتدبيره وتصريف

(١) سورة النحل (١٧).

شئونه، وحفظه والعناية به^(١) .. يسبب أسبابه ويقطعها. يقيه إن أراد له البقاء، ويفنيه إن أراد له الفناء، ويجعله نعمة ويصيره نقمة .. يبقى فيه خواصه أو يسلبها، مثلما فعل بالنار إذا أُلقي فيها نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) ..

فسبحان القادر على السلب بعد العطاء، ومصير الأمر إلى طبيعته بعد السلب ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(٣).

[ب] التعريف بالصفات :

كما عرف القرآن الكريم بذات الله تعالى عرف بصفاته، إذا لا يمكن فهم الذات بدون التعريف بالصفات .. وتأتي أهمية التعريف بالصفات لبيان متعلقات الذات الإلهية، ولضبط تصور الإنسان العابد لصفات الله تعالى المعبود، وحتى لا يخلط ولا يتوهم، ولا يخرص، فينسب ما ليس لله الله ، ويلحق ما هو من عوارض البشرية بالذات الإلهية، فيوقعه ذلك في التيه والحيرة، ولا يتأتى مع ذلك يقين.

وعدم اليقين يدفع إلى الشك والشك يدفع إلى الاعتراض والاعتراض يسلم إلى الكفر، وبذلك يفوت مقصد الرسالة، وهو الإقرار بالذات الإلهية وبصفاتها.

فصفات الله تعالى ليست كصفات غيره .. فهي تستمد قوتها من قوة الذات العلية .. إنها تتسم بالكمال المطلق، تنزه عن كل نقص قال الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٤).

والله تعالى بهذا يعرف بذاته وبصفاته، فينفي عنه المثلية، إذ المثلية من صفات المخلوقات، والله تعالى لا أول لوجوده ولا انتهاء له، فهو خالق لا مخلوق سبحانه وتعالى .. قوي لا ضعيف .. غني لا فقير .. إنه كل لا يُجزأ .. وذات لا تُشبه، ولا يمكن أن تتجسد .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) راجع : مفاتيح الغيب للإمام الرازي (١٣ / ٩٩) مرجع سابق.

(٢) سورة الأنبياء (٩٦)

(٣) سورة الأنبياء (٢٣).

(٤) سورة الشورى (١١).

أهمية التعريف بالذات والصفات للمدعو:

تأتي أهمية التعريف بالذات والصفات لضبط مسيرة الإنسان العقدية، ويقتضيه الإيمانية، واستقامته السلوكية، وترقبه للكمال الخلقي، وتحقيقه بخشية الله تعالى ومراقبته، والخوف من التقصير في حقه، والتفريط في جنبه، والخلود إلى الأرض، والركون إلى المادة، والاستغراق في الشهوات والملذات، والرضا بالمذلة والدعة.

إنه يأبى إلا العزة بالله، والانتصار له، والحفاظ على دينه، والتجرد للحق، ومحاربة الهوي، ومجانبة الباطل، والترفع عن الترهات والسفاسف، وكراهية الفساد والفسوق، والعودة إلى المعصية بعد التوبة، وإلى الضلال بعد الهداية.

إنه ينشط لتحقيق الإيمان بالتقرب إلى الله تعالى بطاعته، والأنس بقربه، الانشغال به عمن سواه.

وهذا يجعله في يقظة دائمة، ومراقبة مستمرة لما يصدر عنه من أفعال، وما يلفظ به من أقوال .. علم أن الله تعالى غنياً فلم يتوجه إلى غيره بطلب، وأنه قوياً فلم يستعن إلا به، وأنه مطلعاً عليه، فلم يستتر منه، وأنه قادراً عليه فاستكان له قلبه، وخشعت له جوارحه، وأنه ودوداً فأتنس به، وأنه عالماً فتعبده بعلمه، وأنه عزيزاً فاستنصره، وأنه حياً لا يموت فتوكل عليه.

وعلم أنه تعالى يتصف بالكمال فنزهه عن صفات الحوادث والعوارض والنقائص، وأنه واحداً فاطمأن له قلبه، وأخلص له العبادة ولم يشرك به شيئاً، وأنه غفوراً رحيمًا .. عفواً كريماً .. فطمع في مغفرته ورحمته وعفوه، وأنه قوياً شديد العقاب فخاف عذابه، وتوقى عقابه، وألان له جانبه .. وعلم أن المصير إليه، وأنه لا منجي ولا ملجأ منه إلا إليه ففر إليه، ولم يلجأ إلى غيره، وتبرأ ممن سواه.

وعلم أن الله تعالى هو المدبر المقدر، فرضي بقضائه واطمأن لقدره، وأنه

يخرق الأسباب فطلب منه الكرامة تثبيتها له، واستعاذ به من الاستدراج^(١) والإهانة^(٢).

وعلم أنه تعالى سيعيده إلى الحياة بعد الموت للحساب فعمل لجنته واستعاذ من ناره.

وقس على ذلك علم العبد بباقي الصفات، وعلمه بقدر الذات العلية.

خطورة الجهل بالصفات الإلهية على المدعو:

لا مزية أن الجهل بالصفات الإلهية له خطورته على عملية الاستدلال فهو يدفع المرء إلى نسبة النقائص لله تعالى، وإلصاق ما لا يليق بذاته به، كما يدفعه إلى عدم تقدير الله تعالى حق قدره.

وهذا قادح في الإيمان مخرج من الملة - معاذ الله تعالى - ولعل هذا ما أوقع اليهود في مهاوى الاعتقاد إذ لم يقدروا الله تعالى حق قدره، ونسبوا إلى ذاته تعالى ما لا يليق به من الصفات.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا في معرض الذم وبيان قبح مآل اليهود فقال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٣).

وذم قولهم "يد الله مغلولة" ولعنهم به، فقال تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٤).

كما ذم نسبتهم الغنى لأنفسهم والفقر إلى الله تعالى فقال تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ

(١) الاستدراج: خرق العادة للعاصي استدراجاً له إلى معصية الله لتنال العقوبة منه.

(٢) الإهانة: خرق العادة لمدعي النبوة فتأتي على غير ما أخبر به إهانة له.

(٣) سورة الزمر (٦٧).

(٤) سورة المائدة (٦٤).

حَقِّقْ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾.

وجهل النصارى قدره فأهوا غيره وعبدوه من دونه تعالى وقالوا بالتثليث والتشبيه^(٢)، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك وأبطله، وذمهم عليه فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾^(٣).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

ولقد جهل قدر الله تعالى من قبل هؤلاء وأولئك قوم نوح عليه السلام، وذكر القرآن الكريم ذلك وعابهم عليه فقال تعالى ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾^(٥) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا^(٥).

وثمة أمثلة أخرى ساقها القرآن الكريم تبين خطورة الجهل بصفات الله تعالى، كما تبين أن ذلك نقص في الاعتقاد يدفع إلى الكفر بالله تعالى والشرك به .. معاذ الله.

ثانياً : التعريف بحقيقة التوكل :

عرف القرآن الكريم في معرض الاستدلال بحقيقة التوكل، فلم يقف عند حد الأخذ بالأسباب، وترك النتائج على الله فقط، وإنما عرف بحقيقته، وما يجب أن

(١) سورة آل عمران (١٨٠، ١٨١).

(٢) راجع تفنيد ذلك في الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم تحقيق د/ عبد الرحمن عميرة وآخرون. دار الجبل بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م (١٩٣/٢) وإغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية (٢/٢١٠) وما بعدها، والمكتبة الثقافية، بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م، وإظهار الحق لرحمت الله الهندي (٣/٦٨١) وما بعدها، تحقيق: د/ محمد ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. السعودية، ط (١) ١٤١٠ هـ، والإعلام بما في دين النصارى من أوهام للقرطبي تحقيق د. أحمد حجازي السقا (١/٧١، ٧٧) دار التراث العربي بدون تاريخ، وراجع: إظهار الحق لرحمة الله الكيرانوي، تحقيق وإخراج عمر الدسوقي (٢/٢٥) وما بعدها. الشئون الدينية بقطر. بدون تاريخ..

(٣) سورة المائدة (٧١).

(٤) سورة المائدة (٧٢).

(٥) سورة نوح (١٣).

يتوفر فيه من قضايا تمحّص الإيمان، وتؤكد الثقة بالله تعالى رب العالمين، ومن هذا ما يلي.

١- بيان حتمية الثقة بالله تعالى، لأنها جوهر التوكل.

٣- عدم التدخل في النتائج حتمية التسليم المطلق لله تعالى فيها.

٤- التسليم بأن الله تعالى يتحقق بطلاقة القدرة وكمال التصريف في الأسباب والنتائج.

٥- بيان أن الله تعالى هو المتحقق بشروط التوكل وحده.

٦- بيان أن المتوكل عليه يجب ألا يكون من ذوات الأغيار، وأن يكون منزهاً عن هذا.

فالتوكل عليه يجب أن يتحقق بالحياة والبقاء والديمومية، وأن يكون ذلك بيده، والله تعالى هو وحده المتحقق بهذا.

أما أن تكون حياته (أي المتوكل عليه) بيد غيره، فإنها عندئذ قد تصير مهددة بالانقطاع، وتتلأشي بانقطاعها الآمال، ويضعف الاعتقاد بها وتتلأشي الثقة فيها، مما يجعل الإنسان يقدم عليها في البداية بين خوف من موت المتوكل عليه وبين ضياع المرغوب فيه والمأمول لديه.

إلى جانب ذلك يجب أن يكون المتوكل عليه قادراً على إنفاذ وعده، فلا يقاوم ولا يعارض ولا يناع، وألا يكون من ذوات الأغيار، فيتحول من الرضا إلى الغضب، مما يؤثر سلباً على المأمول، فيضيع أمل المتوكل تحت وطأة الغضب. ويكون تحقيق مصلحته مرهناً بمقدار ثبات المتوكل عليه على حالة واحدة، فضلاً عن أن المتكل عليه يجب أن يتحقق بالرحمة.

ومن مقتضى الرحمة تفويت المأمول على المتوكل، دفعاً لضرر قد يلحق به، كما يجب أن يكون عالماً خبيراً بطبيعة الأشياء وأسبابها، حتى يلبي للمتوكل سؤله وحاجته، ويجب أن يعتقد المتوكل اعتقاداً جازماً أن الله تعالى لا يفعل به إلا الخير،

وقد يكون الخير في تفويت مصلحة ظاهرة لحكمة يعلمها هو، والله تعالى وحده هو المتحقق بهذا.

وهذا التعريف بحقيقة التوكل وما يجب أن يتحقق به المتوكل عليه وما يشترط في المتوكل يمحص قضية التوكل، ويملاً قلب المتوكل عزماً على التسليم المطلق لله تعالى، وثقة كاملة في قدريته وقاهرته.

ودليل هذا قول الله تعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝۵۱ ﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿ ١ ﴾.

وقال تعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٢).

وقال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣).

وقال تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝۵۲ ﴾ الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ۝۵۳ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ۝۵۴ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤).

وقال تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝۵۵ ﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (٥).

والتأمل في هذه الآيات يجد أنها بينت حقيقة التوكل وحيثياته ومقتضياته، على نحو ما سبق بيانه.

(١) سورة الفرقان (٥٨، ٥٩).

(٢) سورة النساء (٨١).

(٣) سورة هود (١٢٣).

(٤) سورة الشعراء (٢١٧-٢٢٠).

(٥) سورة النمل (٧٧، ٧٨).

أهمية التعريف بالتوكل للمدعو:

تأتي أهمية التعريف بالتوكل للمدعو من حيث أنها بينت له وجه العبادة الصحيح والكامل في عقيدة التوكل، وعرفته تعريفاً حقيقياً كاملاً بالله سبحانه وتعالى .. فهو تعالى عزيز رحيم .. سميع عليم .. خير بصير .. بيده مقاليد كل شيء .. متصرف في كل أمر .. منزّه عن الأغيار.

وهذا مما يملأ قلبه صدقاً و يقيناً، وإيماناً وعزماً، ويحققه بمقام العبودية لله تعالى.

خطورة عدم التعريف بقضايا المدعوإليه :

تكمّن خطورة عدم التعريف بقضايا المدعو إليه في أن عدم تعريف الداعي بموضوع دعوته يكون مدعاة للبس والغموض، ولا يخفي ما لعدم وضوح المعاني في ذهن المدعو من خطورة كائنة في إحجامه عن التبعد الصحيح، أو التخطئ في الاعتقاد، والجهل بقضايا الدين، من ثم لا يستقيم في عبادته ولا يستقر على حال.

وعدم التعريف بحقيقة القضية وطبيعتها يؤثر سلباً على العمل الدعوي، إذ يجعل الداعي في واد، والمدعو في واد آخر، خاصة أن التعريف بالشئ أولى شرائط الإيمان به، والتزام العمل بمقتضاه، وبهذا يفتقد الانسجام والتفاعل بين الداعي والمدعو .. إنه سيكون مشتت الأفكار، مندهشاً، مذهولاً، فاطر الحس، بطئ الاستجابة إن لم يكن منصرفاً عنها.

وهذا خطأ الداعي لا المدعو، لأنه خالف قاعدة أصيلة من قواعد المنهج الاستدلالي في نصب الأدلة على قضايا الدعوة، وهي قاعدة التعريفات، ولا يخفى ما لهذه القاعدة من أثر بالغ في العمل الدعوي، فوجودها شرط نجاحه، وغيابها مدعاة فشله.

من ثم نجد أن القرآن الكريم يراعي في معرض الاستدلال التعريف بجوانب

القضية وبيان طبيعتها، وثمراتها، وأحكامها، ونصب الأدلة على ذلك حتى تكون واضحة بينة في ذهن المدعو، فيقدم على عبادة الله تعالى عن علم ويقين وثقة. وعلى الدعاة أن يلتزموا هذه القاعدة المنهجية في معرض الاستدلال على قضايا الدعوة، حتي يتحقق لهم نهوض فعلي بدعوتهم وارتقاء إلى مستوي العمل المنهجي الجاد.

المبحث الثالث

ترتيب النتائج على المقدمات

من روائع منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم ربط المقدمات بالنتائج ربطاً لا ينقسم، وترتيب الثانية على الأولى ترتيباً لزومياً، إذ لا نتيجة بدون مقدمة، ولا مقدمة بدون نتيجة، فالأمور لا تأتي عفوية أو مصادفة، وإنما تأتي على نحو من التحري والبحث والتأمل والتدبر، والنظر في طبيعة القضايا المادية والمعنوية لاستخلاص المقدمات، وتلمس النتائج المنبثقة عنها.

هذا في جانب التفكير النظري، وكذلك الشأن في الجانب التطبيقي أو السلوكي، إذ نجد القرآن الكريم يؤكد في موطن نصب الأدلة إثبات هذه القضية على نحو من القطع واليقين، يقطع بالحقيقة، وينفي الظن والوهم والخرص.

ومن يتأمل القرآن الكريم يلمس تركيزه على هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية في سائر القضايا من حيث الإثبات والنفي والهدم والبناء .. وبيان طبيعة الأشياء ومهاياها .. ومبدئها ومآلها .. وأسباب بقائها وعوامل زوالها، ومظاهر ثباتها وفنائها.

تأصيل هذه القاعدة:

أولاً: ترتيب النتائج على المقدمات في جانب التفكير النظري وإثبات العقائد:

نجد القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي يثير أمام العقول في معرض إثباته قضية الوحدانية وإبطال التعددية أو الثنائية العقدية في مجال الإلهيات، نجده يثير قضية النتائج والمقدمات والأسباب والمسببات، ويؤكد من حيث المفهوم أن

سلامة النتائج من سلامة المقدمات، وأن المقدمة الصحيحة لا يترتب عليها ولا ينبثق عنها إلا نتيجة صحيحة، وأن العكس مستحيل ووروده.

قال الله تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٥﴾.

دلالات التأصيل:

إذا تأملنا الآية الأولى نجد أنها تتحدث عن فساد عقدي يتمثل في "التعددية الإلهية" في نظر من اعتقدوها.. هذه التعددية مأخوذة من التعبير القرآني بصيغة الجمع. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

وهذا الفساد العقدي ناشئ عن فساد التصور .. إنه نتيجة فاسدة لمقدمة فاسدة قامت على أساس التقليد لا على أساس النظر الصحيح، قامت على أساس إلغاء العقل ورفع شعار التبعية دون فحص ونقد لهذه "التبعية" المفروضة بيئياً، والتي صارت موروثاً عقائدياً بالياً لآباء سابقين ضلوا في اعتقادهم، وتخططوا في سعيهم .. إنهم عمدوا إلى تعطيل العقل، بل إقصائه عن ساحة الحكم، وعطلوا حواس إدراكهم فجاءت مدركاتهم على نحو ما جاءت به تلك المقدمات.

ولو أنهم نظروا بروية وتؤدة، وتأملوا في ملكوت السماوات والأرض، وفكروا برجاجة عقل بعيداً عن التحم، واتباع الهوى، وتعطيل الحواس، لأيقنوا خطأ نتائجهم المتمثلة في "التعددية الإلهية" وأيقنوا خطأ المقدمات التي آلت بهم إلى هذا المأل الآسن.

ولكن ما هي مقدماتهم تلك؟!

إنها كما يبدو مما سبق تحكيم الموروث البيئي، والخضوع للتقليد العقدي، وهكذا تصوروا الدين، وتصوروا آلهتهم.

(١) سورة الأنبياء (٢١: ٢٣).

ويأتي القرآن الكريم ليثبت لهم خطأ مقدماتهم بطريقة تثير التفكير، وتدعو إلى التأمل والنظر، وتعرية العقل عن حجبه التي أعمته عن رؤية الحقيقة في صورة مقدمتين صحيحتين، ونتيجتين صادقتين: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ :

فالمقدمة الأولى هي :

"إن تعددية الآلهة سبب لفساد السموات والأرض، وإبطال النظام، وذلك لإمكانية المعارضة والتنازع بين الآلهة، إذ أنه إذا أراد أحد الآلهة فعل شيء أراد الآخر إبطاله أو معارضته، ولو أراد إحداث خلافة لبطل لإمكان معارضته أيضًا، فيلزم الدور والتسلسل، وهذا محال على الله تعالى".

والمقدمة الثانية: "إن السماوات والأرض موجودتان لم ينكرهما عاقل وباقتان صالحتان لم تفسدا"^(١).

وهاتان المقدمتان وغيرهما من المقدمات التي نصبتها أدلة القرآن الكريم (مقدمات قائمة على مخاطبة الفطرة، والحس والعقل والجدل والإعجاز)^(٢) بحيث لا يجد المنصف حيالها مناصًا من التسليم بقطعياتها، وإفادتها اليقين والجزم.

ذلك أنه (من المقررات الأساسية فيما يتعلق بالبرهان أو الدليل في القرآن الكريم: أن قيمته كامنة في إعطاء الاطمئنان وزيادة اليقين الإيماني، وبالتالي تزيد الموقن يقينًا على يقينه، وتزيل الشبهة، كذلك فإن مسألة البرهان اليقيني مسألة موضوعية لها علاقة بالدليل أي أنها تدور مع الدليل وجودًا وعدمًا، لأن اليقين هو الأساس الذي قام عليه البرهان القرآني، قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(٣).(^(٤))

(١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي (٢٢/ ١٣٠) مرجع سابق. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٤٤٤١) دار الغد العربي ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢) أسس اليقين بين الفكر الديني والفلسفي: د/ يوسف محمود محمد (ص ٢٥٧) دار الحكمة. قطر. الدوحة، ط (١) ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣) سورة الأنعام (٧٥).

(٤) أسس اليقين: د/ يوسف محمود (ص ١٩٤) مرجع سابق.

والنتيجة الصادقة لهاتين المقدمتين ثبوت وحدانية الله تعالى لما يلي:

١ - أنه تعالى لم يعارض ولم ينازع في ملكه، ولم يبطل مراده، ولم يخرج حتى الآن من يدعي ذلك، ولن يحدث إلى يوم القيامة.

٢ - أن فعله تعالى نفذ، ومراده تم من خلق السماوات والأرض وما فيهما، فدل ذلك على أنه واحد.

ومن أدلة التأصيل لهذه القاعدة المنهجية قول الله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْغُرُورَ ﴾ ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٢﴾.

تأملات في الآيتين الكريمتين:

إذا تأملنا هاتين الآيتين ألفينا ما يلي:

١- جاءت أولاهما لتعجز المشركين، وتبين لهم بأسلوب واقعي وبطريق عقلي يثير العقل ويدفعه إلى التأمل والتدبر والتفكير في القضية المثارة .. وتضع أمامه مقدمات ضمنية تفهم من منطق السياق.

من يُعبد بحق يجب أن يكون خالقًا متفردًا بالخلق لا شريك له فيه، وهذا برهان واضح من براهين الوحدانية، فهاذا خلقت هذه الآلهة التي تعبد من دون الله؟!

ماذا خلقت من الأرض التي هم عليها؟!

أم لهم شرك في خلق سموات لم يستطيعوا الارتقاء إليها؟

ولو فرض جدلاً أن لهم كتاباً يتبينون منه ذلك، فلن يكون إلا من عند الله تعالى الواحد، لكن شيئاً من ذلك لم يرسل إليهم، وذلك على سبيل التهكم والسخرية،

(١) سورة فاطر (٤٠، ٤١).

لمخالفته النظر الصحيح، والعقل السليم، والمنطق الواضح، والبرهان القاطع، والحجة البالغة.

١- المقدمات والنتائج المستنبطة من هذه الآية:

أ- إن الذي يخلق من العدم هو المتحقق بالإلهية.

ب- ثبت عدم قدرة آلهتكم وعجزها عن الخلق.

ج- وثبت قدرة الله تعالى على ذلك وتحقيقه به وتديره.

والنتيجة لذلك: بطلان ما تعبدون، ونفي ما تشركون به، وإثبات وحدانية الله تعالى.

٢- وتأتي الآية الثانية لتنصب أمام العقل مقدمات ونتيجة يحقق الواقع صدقها وصحتها.

أ- السموات والأرض باقيتان مترزتان لم تزولا.

ب- وهي مفتقرة في إمساكها إلى إله قوي قادر مدبر مريد مختار عليهم، ولا يستطيع ذلك غير الله تعالى.

ج- وإن تلاشت حالة اتزانها وثباتها وزالتا فلن يقدر علي إمساكها أحد من بعده.

والنتيجة: أن القادر على حفظ السموات والأرض من الزوال هو الله تعالى، ولم يقدر على ذلك غيره، فهو إذن المتحقق بالألوهية المتصف بكمال الربوبية، المتفرد بالوحدانية، المتصف بطلاقة القدرة والعناية الربانية.

وما أروع القرآن الكريم وهو يقرر هذه القاعدة في منهجه الدعوي الاستدلالي، والأدلة على ذلك كثيرة لا نستطيع إحصاءها كلها في هذا البحث، لذا نكتفي منها بهذا.

ثانياً: ترتيب النتائج على المقدمات في الجانب العملي والسلوكي:

كما ركز القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي على ترتيب النتائج على المقدمات، نجده يركز - أيضاً - على هذا الترتيب في جانب التطبيق والسلوك لضبط

الإيمان، وإصلاح مسيرة الأخلاق، معتمداً على إقناع العقل بهذا .. إذ كل مقدمة لها نتيجة .. ولا توجد نتيجة بدون مقدمة قال تعالى ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾^(١).

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾^(٢).

وقال تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٣).

وقال تعالى ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾^(٤).

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾^(٥).

دلالات التأصيل:

لا مرية أننا إذا تأملنا هذه الآيات الكريمة نجدها بينة واضحة الدلالة في ربط الأسباب بالمسببات في جانب العمل والتطبيق السلوكي للقيم الأخلاقية والدينية، وذلك لما يلي:

- ١ - إن كل نفس أحسنت فمصيرها حسن، وكل نفس أساءت فمصيرها سيء.
- ٢ - إن الإنسان يجازي بعمله، ويؤاخذ بما كسب.
- ٣ - لم يصب إنسان بمصيبة إلا بما قدمت يداه.
- ٤ - ظهور الفساد في البر والبحر إنما كان بسبب ما كسبت أيدي الناس.

(١) سورة الأعراف (٣٩).

(٢) سورة يونس (٥٢).

(٣) سورة فصلت (١٧).

(٤) سورة الكهف (٥٨).

(٥) سورة فاطر (٤٥).

٥ - الذين يكسبون السيئات يأتون يوم القيامة وكأن وجوههم قطعاً من الليل مظلمة!!!

٦ - إن الأقوام السابقون أهلكوا بالإبادة والاستئصال بسبب ما قدمت أيديهم وما كسبوا من معصية الله تعالى ومعارضة دينه والاستكبار على رسله، بل وإيذائهم وتعذيبهم.

٧ - إن الحدود مسببة بأسباب لا يطالب بتطبيقها إلا على من تحقق بواحد من أسبابها.

ولعله من خلال هذا تتضح صورة ترتيب المقدمات على النتائج بربط الأسباب بالمسببات.

[ب] ربط الجزاء بالشرط:

كما أتت قاعدة "ترتيب النتائج على المقدمات" في صورة ربط الأسباب بالمسببات، تأتي هنا في صورة الشرط والجزاء، فبينهما من الترابط ما لا يمكن فصله، إذ الجزاء مترتب على الشرط، والشرط سبب لحصول الجزاء.

فإذا وجد الشرط وجد الجزاء، ولا جزاء في صيغة الشرط بدون شرط.

فمن يعمل صالحاً لا يجد إلا ثمرة صالحة.

ومن يزرع الشوك لا يجني الورود.

ومن يزرع الحقد لا يجني حب الآخرين.

ومن يغرس حب الذات لا يجد من يضحى من أجله.

ومن تقرب إلى الله تعالى لا يجني شقاء البعد عنه.

وأنت تقول موجهًا: إن فعلت كذا نلت كذا، إن أطعني أطعتك إن خالفتني خالفتك .. وتقول لولدك وطلابك: إن ذاكرتم نجحتهم، وإن لم تذاكروا لن تنجحوا .. من أطاع الله دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وهكذا.

إنه ربط منطقي وتقرير عقلي، فمن رضي بالشرط تحمل الجزاء، لأنه يعلم سلفاً أنه متحمل نتيجة، ومسئول عما قطع مع غيره من عهد.

والشرط والجزاء صورة من صور قطع العهد وإنجاز الوعد، وتحديد الموقف، و
تحخيص الهوية الإيمانية، ونجده عند التحقيق متضمناً معنى الترغيب والترهيب،
والوعد والوعيد، والبشارة والإنذار ومن شأنه أنه يحمل الإنسان على الجد
والاجتهاد في العمل والطاعة العبادية.

والمتبرم من الشرط والجزاء بعد قطعه، والمعترض عليه في حسن جانبه، إما غافل
أو مغرض أو صاحب هوى.

ويأتي الجزاء أثراً مباشراً للشرط على وجه اللزوم لا على وجه الاحتمال،
فالإنسان ملزم بما وافق عليه أو قطعه من شرط، ويحمل على الوفاء به إن تقاعس
عنه.

ويؤكد قيمة الشرط والجزاء اللزومية ما روي عن الرسول ﷺ: (المسلمون عند
شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً) ^(١) أي ملزمون بما قطعوه على
أنفسهم.

حدود الشرط والجزاء:

الشرط والجزاء لم يكن قيمة مطلقة بدون ضابط في مجال الإلزام والالتزام، وإنما
هو قيمة مقيدة بالاستطاعة والقدرة على إنجاز الشرط وتحقيق الجزاء، إلى جانب أنه
مقيد بالأذى يخرج عن دائرة الحلال ويخترق دائرة الحرام، وهذا ما يبدو مما سبق "إلا
شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً".

إطلاقات الشرط والجزاء في القرآن الكريم:

جاءت إطلاقات الشرط والجزاء في منهج الاستدلال من حيث إقامة الحجة من
الله تعالى على الخلق في صورتين:

أولاهما: ما يتضمن معنى الخير والثواب.

ثانيتهما: ما يتضمن معنى الشر والعقاب.

(١) سنن الدراطيني (٢/ ٢١) كتاب البيوع، حديث رقم (٢٨٦٩) دار الفكر، ط ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

أولاً: ما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الخير والثواب:

في موطن إقامة الحجة ونصب الدلالة على عدالة القضية، والقطع بوفاء الله تعالى بما قطع على نفسه مع عبده من شرط وجزاء - ولا يجب عليه تعالى شيء - من إثابة الطائعين، والتوبة على التائبين وقبول رجاء العبد، وتضرعاته إليه تعالى في خلواته وجلواته .. في سره وعلايته .. وسواء أكان مستخف بالليل أو سارب بالنهار.

وفي هذا يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(١).

ويقول الله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢).

ويقول تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا تَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا﴾^(٣).

ويقول تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾^(٤).

ويقول سبحانه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٥).

(١) سورة النساء (١٢٤).

(٢) سورة الكهف (١١٠).

(٣) سورة الأنبياء (١١٢).

(٤) سورة الأنبياء (٩٤).

(٥) سورة التغابن (٩).

ثانياً: ما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الشر والعقاب:

مثلاً يقال فيما يتضمن من الشرط والجزاء معنى الخير والثواب يقال هنا في نقيضه مع التفريق بين طبيعة الخير والشر والثواب والعقاب. ومن حيث عرض الاستدلال على عدالة القضية الإلهية في ترتيب النتائج على المقدمات في صورة الشرط والجزاء.

ودليل ذلك قول الله تعالى:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِ بِهِ وَلَا تَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١).

وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢).

وقال تعالى ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣).

وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٤).

وقال تعالى ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٥).

وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٦).

تأملات في الآيات الكريمة:

لا مرية أن لالة الآيات الكريمة على ورود المقدمات والنتائج في صورة الشرط والجزاء في معرض الاستدلال على العدل الإلهي واضحة وضوحاً لا خفاء فيه، وبينه بياناً لا لبس فيه.

(١) سورة النساء (١٢٣).

(٢) سورة الزلزلة (٨).

(٣) سورة الأنعام (٨٨).

(٤) سورة البقرة (١٠٨).

(٥) سورة النساء (١١٦).

(٦) سورة النساء (١٣٦).

فمن يعمل الخير لن يحصد غير الخير .. ومن يعمل الشر لا يحصد غيره .. ومن ضل فإنما يضل على نفسه، ومن عمى فعليها .. من يؤمن بجازي خيراً ومن يكفر يُجَازَى شَرًّا .. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١).

ونتيجة العمل مسئولية فردية لا جماعية.

هذه قضية عادلة، وليس من العدل أن ينتظر المسيء الثواب، ولا المحسن العقاب، ولا أن يدخل المؤمن النار ولا الكافر الجنة.

- نسأل الله تعالى الجنة ونعيمها، ونعوذ به من رؤية النار وعذابها -

(وعدم تطبيق هذه القاعدة يؤدي إلى اختلال ميزان الثواب والعقاب على من أحس أو على من أساء .. وهذا ما يضيع كل شيء .. فبدلاً من أن نعطي المحسن .. نعطي المنافق والمرائي .. والذي يغضب الله ليرضيك .. والذي يزيّف أو يزور من أجلك .. لقد أخذ الإنسان مبدأً وضعه الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى المحسن .. فأفسده بسوء تطبيقه)^(٢).

فخرق هذه القاعدة إذن إفساد في الأرض، لأنها تغاير شرطية المقدمة للنتيجة.. السبب للمسبب، ويترتب عليها في معرض الاستدلال قلب حقائق الأشياء، وتغيير خصائصها وسماتها، وهذا عبث محض يجب أن ينتزه عنه الأسوياء.

ترتيب النتائج على المقدمات قاعدة شرعية:

ويتضح من خلال ما سبق سوقه من آيات كريمات في قضايا الإثبات والنفي في مجال العقائد، وفي ربط الأسباب بالمسببات، والشرط بالجزاء، أن الله تعالى جعل ترتيب النتائج على المقدمات قاعدة شرعية بحيث لا يدخل الجنة إلا من يستحقها ويعمل لها، ولا يدخل النار إلا من قصّر أو فرط في جنب الله تعالى - معاذ الله.

(١) سورة المدثر (٤١).

(٢) القصص القرآني في سورة الكهف: فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (ص ٨٢) طبعة أخبار اليوم..

وعمل العبد مقدمات يترتب عليها نتائج، فالعبد إن صلح صلح عمله، وإن فسد فسد، ولا معني للثواب ولا للعقاب بدون عمل، وقعود الإنسان عن العمل الصالح غير وارد شرعاً، لأنه مكلف، وهو مقدمة للفلاح وسبب للنجاة، فمن أراد الفلاح فليعمل على رضوان الله، وليهتدي بهداه، وليستقم ابتغاء مرضاته تعالى، وهذا مطمئنا وما نؤمل، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

ترتيب النتائج على المقدمات مبدأ عقلي:

لعله اتضح مما سبق أن ترتيب النتائج على المقدمات، والشرط على الجزاء وربط الأسباب بالمسببات قسمة عقلية تقتضيها العقول السليمة، وهي إلى جانب كونها قاعدة شرعية مبدأ عقلي، إذ أنها معطيات عقلية محسومة أجمعت العقول على صدقها، بحيث لا تقبل النزاع ولا الجدل، كما لا يرتاب أحد في أن الإنسان "كائن مفكر"، وطالما أنه يفكر إذن فله عقل، وهذا استدلال بالأثر على المؤثر أو المصدر، إذا استدللنا بالتفكير على وجود العقل، لأنه أثر من آثاره، بل إنه منبثق عنه، وهذه مقدمات ونتائج أو مبادئ أقرت العقول السليمة حقيقتها، ذلك أن من قواعد المنهج القرآني في الإثبات (الانطلاق من المقدمات الأولية في العملية البرهانية بأمور مؤيدة مع مراعاة العلم والبعد عن الظن والجهل ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١)).^(٢)

وهذا المبدأ العقلي هو المحرك للإنسان للالتزام بقضايا الشرع وتصديق الأنبياء والرسول والدعاة الراشدين.

من ثم (جاء الوحي على أيدي المعصومين الصادقين من الأنبياء ليمد العقل الإنساني بالمدرجات في علاقات الكون وموضع الإنسان منها، ومهمة وجوده تجاهها، وقواعد علاقاته الإنسانية والاجتماعية الأساسية اللازمة لترشيد سعيه، وتحقيق غاية وجوده)^(٣).

(١) سورة الإسراء (٣٦).

(٢) أسس اليقين: د/ يوسف محمود (ص ٢٠٩) مرجع سابق، والقصص القرآني في سورة الكهف. فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (ص ٦١) مرجع سابق.

(٣) إسلامية المعرفة. المبادئ العامة. خطة العمل.. الإنجازات (ص ١١٣، ١١٤) مرجع سابق.

خرق الله تعالى للأسباب وصرفه للنتائج لا ينقض القاعدة:

قد يلتمس الإنسان المقدمات، ويحْدُّ في إحكام نتائجها، لكن الله تعالى قد يحول بينه وبين ذلك، أو يعطل ظهور النتائج على وفق الترتيب السابق.

كما أن الإنسان قد يلتمس من الأسباب أقواها، لكن الله تعالى قد يعطل تلك الأسباب، فلا يصل الإنسان بها إلى شيء من مراده. وقد يخرق الله تعالى ما اعتاده الناس وألفوه، فتأتي النتائج لبعض ممن أراد الله بدون مقدمات على غير العادة، أو تأتي المسببات بلا سبب يلتمسه الإنسان.

ومما يجب مراعاته في عملية الاستدلال أن هذا لا يعني نقض قاعدة ترتيب النتائج على المقدمات، وربط الأسباب بالمسببات، والشرط بالجزاء، وإنما يعني ترسيخ اعتقاد من يباشر الأسباب والمقدمات، ويعقد الشروط بأن الله تعالى هو المدبر وهو المسير، إن شاء أمضي الأسباب وإن شاء عطّلها، وإن شاء خرقها وإن شاء أنفذ المقدمات وأجرى النتائج، وليس على الإنسان إلا أن يعقد الأسباب، وينشئ المقدمات، ثم يترك النتائج لله سبحانه وتعالى.

وفي ذلك غايات منها ما يلي:

الغاية الأولى: إثبات طلاقة القدرة الإلهية والقاهرية لأسباب الأشياء والهيمنة على مقدرات الأمور، ليتفرد سبحانه وتعالى بها لا يشاركه في ذلك شريك، ولا ينازعه فيها أحد.

الغاية الثانية: إثبات عجز المخلوق، وافتقاره الدائم إلى تلك القدرة التي تدبر له أموره وتصرف له شئونه، ليستشعر برد الإيمان ويأنس بالطمأنينة، وينعم بذلك النعيم، فيقوم حاله، ويصلح شأنه، وينشط لعبادة ربه خالقه وبارئه ومولاه.

الغاية الثالثة: تأييد الأنبياء بالمعجزات.

الغاية الرابعة: ابتلاء الخلق، وتمحيص إيمانهم.

ولهايتين الغائيتين جاء القرآن الكريم في معرض الاستدلال بنماذج من خرق الأسباب، وقلب مهاييا الأشياء، وتغيير طبائع الأمور، ترى فيها النتائج مجرة، والمقدمات معطلة، وترى المسببات قد أتت على غير مراد المسبب، ويتغير ما يوقن أنه شر إلى محض خير.

فذلك آدم ﷺ يُخلق بلا أب ولا أم!! وتُخلق منه حواء!! وذلك عيسى ﷺ يأتي من أم بلا أب!! وناقة صالح ﷺ تأتيهم وفيها من الآيات ما يعجزون عن الإتيان بمثلها!! وتلك النار التي ألقى فيها نبي الله إبراهيم ﷺ ليحرق بها، فإذا هي برد وسلام عليه!! إنه يتمتع فيها بالنعيم مؤتسًا بربه، ومطمئنًا له!! ومن رموه يتلذذون بما يتوهمونه به من إحراق وتعذيب واستئصال.. وقد نُجي بأمر الله.. وتلك سكين إبراهيم التي أراد بها أن يذبح ولده إسماعيل ﷺ، تحقيقًا لرؤيا أراه الله تعالى إياها، فإذا بها تُسلب منها خاصية الذبح أو تُعطل عن أداء وظيفتها!! وذلك حدث الإسراء والمعراج الذي وقع لرسول الله ﷺ خرقًا لكل القوانين والنواميس الطبيعية، وما جرت عليه الأعراف، وما قطعت بضرورته العقول!!

وغير ذلك كثير نكتفي بالإشارة إليه بهذه النماذج.

وليخبرنا من يقول بحتمية ترتيب النتائج على المقدمات، ومن يري حتمية ربط الأسباب بالمسببات على وجه الإطلاق، لماذا لم تحرق النار إبراهيم ﷺ؟! وكيف خلق آدم ﷺ من تراب؟! بل كيف جاء عيسى ﷺ بدون أب؟! ولماذا لم يذبح السكين إسماعيل ﷺ!؟

بل كيف نجا الرسول ﷺ من الإبادة بالمادة المضادة في الفضاء أثناء عروجه إلى السموات العلا وفقًا لمعطيات العلم الحديث، حيث اكتشف العلماء هذه المادة في أماكن محددة في الفضاء يستحيل معها نفاذ أي جسم إلى ما وراء ذلك^(١)؟!!!!

(١) الكون والإعجاز العلمي للقرآن : د/ منصور حسب النبي (ص ٢١٤) دار الفكر العربي، ط (٢) ١٩٩١م.

أين المقدمات والأسباب من هذا؟!

لم يصح إلا القول بأن الله تعالى تفرد لنفسه بذلك بحيث لا يجري في الكون إلا مراده تعالى، ولا يركن الإنسان إلى الأسباب ويتناسى المسبب الحقيقي لها وهو الله تعالى، ولا يقطع بحتمية النتائج فيأخذه الغرور.

إنه يجب عليه أن يكون في رجاء دائم في الله تعالى .. في توكل كامل عليه سبحانه .. في تسليم مطلق لتقدير ربه وتديره، وليعلم أنه ليس له في نفسه شيء، لكن هذا لا يعني التواكل والاستكانة، وإنما يعني مباشرة الأسباب وترك النتائج على الله تعالى، وإنشاء المقدمات والتضرع إلى الله تعالى بأن تأتي النتائج على وفق المقدمات لا تتخلف عنها.

والله تعالى يقول:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(١).

وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

إضافة إلى ما سبق فهذا يثبت أمرين:

١ - طلاقة القدرة الإلهية.

٢ - ألا يعتمد الإنسان على عمله، ولا يركن إلى الأسباب من دون الله تعالى.

(فالإنسان السطحي هو الذي يقف عند الأسباب، أما المتعمق فهو الذي يقف عند المسبب .. لأنك لو ادعيت أنك قادر على الإتيان بالنتائج .. نقول لك حافظ عليها بأسبابك .. وهذا يدلنا على أن المؤمن ينظر إلى حقائق العطاء ولا ينظر إلى

(١) سورة الشورى (٤٩، ٥٠).

(٢) سورة المائدة (٤٠).

ذات العطاء .. لأنه قد يكون في المنع عطاء .. ويكون المنع أثمن من النعمة ذاتها .. أنت تظن أنه لم يعطك، لكنه في الحقيقة بهذا المنع أعطاك^(١).

يبقى القول: إن هذا الخرق للأسباب وتعطيل المقدمات، أو إبطال النتائج لا ينقض هذه القاعدة الاستدلالية وهي قاعدة "ترتيب المقدمات على النتائج"، أربط الأسباب بالمسببات" بل يرجع إلى ما بيناه سلفاً.

أهمية قاعدة ترتيب النتائج على المقدمات:

تكمُن أهمية ترتيب النتائج على المقدمات وربط الأسباب بالمسببات والشرط بالجزاء في موطن الاستدلال فيما يلي:

[١] بيان واقعية الدين الإسلامي للمدعو ومدي تقديره للعقل ومقتضيات الحكمة الناشئة من التأمل الدقيق، والنظر الثاقب، والعين الباصرة، فلا شئ من تكاليفه فوق مقتضيات الطاقة، إذا لم يُكلف العقول بإدراك ما لا تستطيعه، أو فهم ما تعيا عن فهمه، كما لم يكلف النفس بما لا يطيق أدائه.

[٢] أن ينشط المدعو للعمل والعبادة ويبلغ من الاجتهاد طاقته أخذًا بالأسباب، وترتيبًا للنتائج على المقدمات حتى يستقيم أمره، ويبلغ رشد، ويبعث عن طبيعة ومهايا الأشياء حتى يقف على آيات الله تعالى فيها، فينفع نفسه والناس، ويعمر الكون بالعمل الصالح.

[٣] الارتقاء بالمدعو من درجة الفرض إلى درجة الحقيقة، ومن دائرة الشك إلى دائرة اليقين، ومن الظن إلى العلم، ومن الرفض إلى القبول، ومن الإنكار إلى الإثبات، ومن الرد إلى الأخذ.

(١) القصص القرآني في سورة الكهف. فضيلة الشيخ الشعراوي (ص ٤١) مرجع سابق.

المبحث الرابع

ترتيب الأحكام على الأدلة

كما هو ثابت في مقتضيات العقول، ومبادئ التفكير الرشيد، والنظر السديد أن النتائج مرتبة على المقدمات، والمسببات على الأسباب، والجزاء على الشرط، فكذاك الأحكام مرتبة - طبقاً لهذه القيم العقلية - على الأدلة، فلا حكم بدون دليل أو برهان أو حجة، وإلا صار الحكم مجرد دعوي لا سند لها ولا مصداقية، ويبقى الحكم أسير الادعاء إلى أن يثبت حقيقته بنصب الأدلة، أو يصير محل شك إلى أن تثبت يقينته.

والإنسان في قضية "الاستدلال" مخاطب شرعاً وعقلاً بنصب الألة على دعواه، وإلا اختلطت الحقائق بالأوهام، والعلم بالطن، والحق بالباطل، والاعتقاد الصحيح بالاعتقاد الفاسد، والتشريع المعصوم بالقانون الموضوع، وقضايا الوحي بنتاج العقل.

وتنقطع بذلك سبل الهداية على الخلق، وتطمس معالم الأشياء وتتلاشي قيم الحق والصدق والعدل، وتُعمى الحقيقة عن باحثيها، والنتيجة عن طالبيها، والحكمة عن ناشديها.

ولعل هذه العلاقة الوثيقة بين الدليل والحكم - في منهجية الاستدلال والتي لا يمكن أن تنفصم عراها - هي التي حددت مفهوم "الفقه" في اصطلاح الأصوليين والفهاء، بالإضافة إلى المثقفين والمفكرين، وعلماء الأمة من المحدثين والمفسرين والمتكلمين.

فمصطلح "الفقه" في المنظور الإسلامي يعني (معرفة الأحكام الشرعية العملية

المكتسبة من أدلتها التفصيلية، والفقيه هو المجتهد، والممتلك لهذه المعرفة بالأحكام الشرعية كافة. وتتوقف هذه المعرفة على تضلع في اللغة العربية، وفي نصوص الأحكام في القرآن الكريم والسنة النبوية، مع القدرة العقلية والبراعة الذهنية في الوصول إلى المراد منها^(١).

وقصر مفهوم الفقه هنا على انتزاع الأحكام من أدلتها فقط تقييد لدائرته، وتضييق لمفهومه، لكننا إن تأملنا آيات القرآن الكريم وإطلاقاته لمادة (ف ق هـ) (سنجدناها تتكرر في آيات عديدة على معنى التفكير والفهم وإدراك الجوهر أو التفسير، بحيث يمكن أن يفهم بها: المعرفة التامة بحقائق الأشياء، وهذا ما أدركه وأقره الأئمة الأربعة وعلماء السلف رضوان الله تعالى عليهم أجمعين)^(٢).

فعملية نصب الأدلة في منهج الاستدلال عملية تراعي الحكمة الشرعية والعقلية في تفهم أوجه الدلالة في مقام الشرع، وفقه العقل، وهي تأكيد لإدراك جواهر الأشياء وتحديد كنهها وما هيته، فضلاً عن أنها تكسب المنشغل بها قناعات تتوهج في الذهن، وترسخ في النفس، ويحصل بها اليقين.

وهذا المفهوم الواسع للصلة بين الدليل والحكم هو منطلقنا في الدراسات الدعوية، إلى جانب الدرايات الأخرى، إذ أنه يحدد بدقة ملامح الخطاب الديني.

ذلك أن (العلم بمراد المتكلم يعرف تارة من عموم لفظه، وتارة من عموم علته والحوالة على الأول أوضح لأرباب المعاني والفهم والتدبر)^(٣).

على أن ما نعينه من هذه العلاقة بين الدليل والحكم هو إثبات الدعوي أو نفيها، وبيان صحتها أو خطئها.

(١)، (٢) إسلامية المعرفة: المبادئ العامة. خطة العمل. الإنجازات (ص ٦١، ٦٢) مرجع سابق.
وانظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني، تحقيق أبي مصعب محمد البدري (ص ٤١٧) بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط (٤) ١٩٩٣م، وراجع من أجل انطولوجيا إسلامية مساهمة في تجديد الوعي الإسلامي: محمد مزور. سلسلة دراسات فكرية العدد (٩) وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٣م.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (١/ ١٩٦).

تأصيل قاعدة ترتيب الأحكام على الأدلة :

لأن الدليل له أثره البالغ في إقناع المدعو واقتناعه، ونقله من محيط الشك إلى اليقين، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الافتراء المحض إلى الانصياع للحق. وهذا من مقتضيات العقول السليمة، لأن الدليل له هذا الأثر وتلك القيمة، ولأنه - إذا صح - فرقان بين الحق والباطل، والضلال والهداية، والاعوجاج والاستقامة، لأنه كذلك راعي القرآن الكريم في منهجه الدعوي الاستدلالي حتمية نصب الأدلة للعقول لتتراءى فيها قيم الإثبات والنفي، وتظهر فيها جليلة شارات العدالة ومعالم الحق، وليحسم بها الجدل، وينقطع النزاع.

(المعيار الذي لا يزيغ أن يكون طالب العلم مع الدليل في جميع موارد ومصادره، لا يشبهه عنه شيء ولا يحول عنه حائل)^(١).

تأصيل القاعدة :

إذا تأملنا القرآن الكريم سنجد مترعاً بالأدلة التي توضح ذلك، ومنها ما يلي :

قال الله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنْظَرُوا إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظَرُوا إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظَرُوا إِلَى الْعُظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لَيُطْمِئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ

(١) أدب الطلب ومنتهى الإرب للإمام الشوكاتي (ص ١٠٤) نقلاً عن معالم تجديد المنهج الفقهي - أنموذج الشوكاتي . حليلة بوكروشة (ص ١٩٧) كتاب الأمة . العدد ٩٠ - ٩١ . ط ١٤٣٣هـ / ٢٠٠٣م .

أَرْعَةَ مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(١).

دلالات التأصيل:

عندما نتأمل هذه الآيات نجد ما يلي:

[١] قضية "ادعاء" و "إنكار".

ادعاء ماذا؟! وإنكار ماذا؟!.. ادعاء "الألوهية" من رجل قال المفسرون عنه إنه (الملك النمرود)^(٢)، وإنكاره إياها على الله تعالى.

[٢] قضية نفي وإثبات من نبي الله إبراهيم عليه السلام في محاجة ذلك المدعي.

ومضامين قول إبراهيم عليه السلام في محاجته لهذا المنكر المدعي وإنكار ادعائه ونصب الحجة على فساد تصوّره .. إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذراته ومجراته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه شمس تبدو كل يوم مشرقة، فإن كنت إلها كما تدعي .. تحيي وتميت فأت بها من المغرب؟

(فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم، فقامت عليه الحجة .. والله لا يهدي الظالمين ولا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد)^(٣).

(١) سورة البقرة (٢٥٨-٢٦٠).

(٢) راجع تفسير روح المعاني للألومسي (١٦/٣) دار إحياء التراث العربي. بيروت. بدون تاريخ. وتفسير القرطبي (٣ / ٢٨٣) وما بعدها دار الكتب المصرية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م، ومفاتيح الغيب للرازي (٧ / ٢٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٣١٣) دار التراث بدون تاريخ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود (١/ ٢٩٢) دار الفكر. القاهرة. بدون تاريخ، والمحرم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالي الفاروق، وعبد الله الأنصاري وآخرون (٢/ ٣٩٧، ٣٩٨) مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر. قطر - ط (١) ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

[٣] قضية "تأمل" من رجل صالح - على الراجح - قال عنه المفسرون إنه عزيز، ولاحظ أن الله تعالى نصب له فيها الأدلة للتثبيت، وتحقيق اليقين.

وكل هذه القضايا لم تكن عارية من الدليل بل طلب فيها الاستدلال على صحة الادعاء - كما في قضية ادعاء الألوهية - من ذاك المدعي مع علم نبي الله إبراهيم عليه السلام أنه سيعجز عن الإتيان بدليل يؤكد صحة دعواه لعلمه اليقيني بوحداية الله تعالى، وبطلان إلهية غيره.

وصارت القضية ساحة للجدل يدلي كل بها لديه من أدلة يراها قاطعة في محاولة لإفحام الآخر، فادعي نمرود دليلاً هو أنه بإمكانه إحياء الموتى بالعبث عنمن قضى عليه بالإعدام، ولو واصل نبي الله إبراهيم عليه السلام جداله في تلك القضية لأفحمه، ولكنه أراد أن يضعه أمام دليل يعجز عن ادعاء مثله والإتيان بنظيره.

ونصب نبي الله دليلاً طلب منه الإتيان بمثله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، وهنا يعجز المدعي عن الرد، ونصب أدلة على نحو ما أتى به نبي الله عليه السلام ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وذاث مرة أراد نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يقيم لذاته الأدلة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى .. إنه يؤمن بها ويوقن بقدرة الله تعالى ويجزم بقاهرته، لكنه يريد نصب الأدلة ليزداد إيماناً واطمئناناً ويقيناً في رحلة تأمل عميقة في أسرار الخلق الإلهي.

ويسأله الله تعالى سؤال تودد وإيناس - وهو أعلم بما يدور في خلدّه - "أو لم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي" وكان التوجيه الإلهي بأن يأخذ نبي الله إبراهيم أربعة من الطير ويجمعهن إليه ويذبحهن ويضع على كل جبل منهن جزءاً، وما عليه إلا أن يدعوهم وفيأتيه سعيّاً ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

و ذات يوم مر رجل على قرية كانت خاوية على عروشها.. فصارت أطلالاً
وبوائق، يلفها الصمت، ويطويها الفناء، وهنا يقف مع نفسه وقفة يدفعه التأمل
والنظر، ويحاول استنطاق الواقع بالأدلة على كيفية إحياء الله تعالى هذه القرية بعد
موتها بمن وما فيها..

وَيُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْصِبَ لَهُ الْأَدْلَةَ عَلَى ذَلِكَ لِيَعْلَمَ قُدْرَتَهُ وَقَاهِرَتَهُ وَهَيْمَتَهُ،
فَأَمَاتَهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَسَأَلَهُ ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾.

والأدلة على قدرتي أي أمتك فتحللت عناصرك وصارت تراباً ثم أحيتك، لكنني حفظت أشياء معك لم تتغير طبيعتها .. شراك وطعامك، وهذا همارك قد مات فانظر إلى تلك العظام كيف نُنشِزُها ثم نكسوها لحماً .. (وهكذا أجري الله الزمن على الحمار .. وأوقفه عن الطعام .. ولا يمكن أن يفعل الشيء وضده في نفس الوقت إلا الله سبحانه وتعالى الذي بيده مقاليد كل شيء)^(١).

وينصب الأدلة من الله تعالى لهذا الرجل تبين له وأيقن بقدرة الله تعالى، وتصريفه شئون خلقه وتصديره للقضاء .. فثمة أمور يبقي طبيعتها .. وأمور يغير طبيعتها .. وأخرى يفنيها .. وثالثة يحييها .. ورابعة يميئها .. وخامسة يبقئها إلى أجل . سبحان الله القادر .

وفي هذه المواقف الفاصلة في تاريخ الاعتقاد قطع الدليل الشك وأحال الافتراض إلى يقين، والظن إلى علم، وأظهر شارات التوهم وفساد الادعاء، وأثبت بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة أباطيل المغرورين وترهاتهم، وزاد الموقن إيقاناً، والمؤمن إيماناً، فبشوت الأدلة تثبت الأحكام، وبوهنها توهم.

وإقامة الدليل قضية تفتقر إلى النظر الدقيق، والتأمل الصادق، والتجرد من كل اعتقاد أو ميل، أو نتيجة مسبقة، [فكل واحد من طريق النظر والتجرد : طريق فيه

(١) القصص القرآني في سورة الكهف: فضيلة الشيخ الشعرواي (ص ١٥) مرجع سابق.

منفعة عظيمة، وفائدة جسيمة، بل كل منها واجب لا بد منه، ولا تتم السعادة إلا به، والقرآن الكريم كله يدعو إلى النظر والاعتبار والتفكير، وإلى التزكية والزهد والعبادة، وقد ذكر القرآن الكريم صلاح القوة النظرية العملية والقوة الإرادية العلمية منه قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(١). فالهدي كمال العلم، ودين الحق كمال العمل.

وقول الرسول ﷺ (إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد)^(٢)، لكن النظر النافع أن يكون في دليل، فإن النظر في غير دليل لا يفيد العلم بالمدلول عليه، والدليل هو الموصل إلى المطلوب، والمرشد إلى المقصود، والدليل التام هو الرسالة والصنائع^(٣).

(والقضايا التي يحرم مدلولها في عبارة تخاطب العقل لها وزنها العلمي، ولكن لو أضيف إلى هذه العبارة صورة تطبيقية تعبر عنها، فإن مدلول القضية يصبح أوقع في النفس، وأنفع في مجال التطبيق والتنظير)^(٤).

وهكذا يتضح افتقار الدليل إلى القوة العلمية، ويدخل النص فيها دخولاً أولاً، والقوة الصنائية (العملية) التي تعتمد على الإجراء والاستنباط والتطبيق والالتزام، وبهذا يتحقق العلم النافع، واليقين والجازم.

القائل بغير علم خائض بغير دليل:

لعلك تلاحظ هذا المعني بجلاء من خلال قول الله تعالى عن إجابة أهل النار أهل الجنة وقد تساءلوا عنهم ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ

(١) سورة الفتح (٢٨).

(٢) مسند الإمام أحمد (٣/ ٣٧١)، صحيح مسلم، ك الجمعة (٤٣).

(٣) توحيد الربوبية من مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٥٩) مرجع سابق.

(٤) بحث نحو منهج جديد لدراسة علم أصول الفقه نشر في حولية كلية الشريعة والقانون الدراسات الإسلامية جامعة قطر (ص ١٥٨) العدد (١٢) ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

﴿١٧﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿١٩﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٢١﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٢٢﴾^(١)

ولو دقت في معاني الآيات الكريمة ستجد أن السبب الرئيس في انحرافهم أنهم كانوا يخوضون في إنكار الرسالة بدون دليل، فلم ينشغلوا بنصب الأدلة على ما أنكروا، ولا ما اعتقدوا، فضلوا، حتى جاءهم اليقين، بما جاءهم به دلالات الوحي الكريم في الدنيا، ولات ساعة مندم!!

ومن الأدلة على ذلك أيضًا ما يلي:

قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾﴾^(٢)

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣)

وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤)

وقال تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥)

وقال تعالى ﴿أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٦)

(١) سورة المدثر (٣٨: ٤٨).

(٢) سورة الغاشية (١٧: ٢١).

(٣) سورة يونس (١٠١).

(٤) سورة المؤمنون (١١٧).

(٥) سورة البقرة (١١١).

(٦) سورة الأنبياء (٢٤).

وقال تعالى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (٦) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٨) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُثْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٩) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَزْكُرُونَ ﴾ (١٠) أَمَّنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَلِيلًا مَّا تَزْكُرُونَ ﴾ (١١) كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ (١١)

وقال تعالى ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢).

وقال تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۖ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ ﴾ (٣).

وثمة آيات كثيرة يمكن أن تؤصل بها هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية.

تأملات في هذه الآيات الكريمة:

لعل مما يبدو بوضوح من خلال تأملنا في هذه الآيات الكريمة ما يلي:

- ١- نصبت الآيات الكريمة الدليل في معرض الإثبات والنفي وإقامة الحجة الدامغة على صدق قضايا الدعوة وإفحام خصومها.
- ٢- توجهت الآيات الكريمة إلى المخالفين، والمعارضين، والمشركين، والمنكرين، بأن يأتوا بالدليل على صحة ما يدعون وإلزامهم عاقبة مآلهم، وسوء منقلبهم إذا لم يقيموا تلك الأدلة "فإنما حسابه عند ربه".

(١) سورة النمل (٦٠-٦٤).

(٢) سورة الأنعام (١٤٩).

(٣) سورة الأنعام (٨٣).

وطلب الاستدلال على صحة المعتقد هنا ليس على بابه وإنما على سبيل التحدي والإعجاز والإلزام، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقيم الأدلة على وجود إله غير الله تعالى **"قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"**. لكن يبقى لنا إقرار القيم الاستدلالية المتمثلة في طلب إقامة الدليل حتى مع المخالفين في الاعتقاد.

٣- يستأثر الله تعالى لنفسه بإقامة الحجة البالغة على خلقه لإحاطة علمه تعالى، وشموله **"قل لله الحجة البالغة"**.

٤- نصبت الآيات الأدلة من الواقع المشاهد، فأبرزت آثار الصنعة الإلهية، ووضحت قدرة الله تعالى وطلاقة تصرفه في كونه، وجعلت من ذلك دليلًا واضحًا بينًا وبرهانًا قاطعًا.

٥ - عابت الآيات الكريمة على المنكرين والمعارضين عدم انتفاعهم بالأدلة المنصوبة في الكون لإثبات قضايا الدعوة والإيمان بها، وبينت أن الإعراض عن الآيات، والدلالات، والحجج، والبراهين المنصوبة في الكون المنظور، وكتاب الله تعالى المقروء، وطمس معالمها، وتعمد إغفالها وتجاهلها، إنما نشأ عن حجب العقول والتشويش على الفطرة، وإعاقة بل وتعطيل وسائل الإدراك واتباع الهوي **"بل هم قوم يعدلون"** .. **"بل أكثرهم لا يعلمون"** .. **"قليلًا ما تذكرون"** .. **"وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون"** .. **"بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون"**.

علي أن الأمر بالنظر في الكون ينطوي على علاقة الدلالة المتحققة بين الناظر والمنظور (وهو ربط واضح بين الإيمان والعلم، فإذا لم ينظر الإنسان في السماء والأرض ويتفكر في روائع خلق الله وما تضمنه من حقائق علمية، فلن تغني عنه الآيات والنذر، ولن يصل قط إلى الإيمان الصحيح، لأنك إنما تؤمن بالله لما ترى من بدائع صنعه، ولم تصل إلى معرفة بدائع الخلق إلا إذا تأملت وفكرت لتتفتح أمامك مغاليق أسرار القوة في ذلك الكون الذي تعيش فيه)^(١).

(١) الإسلام في عشرين آية: د/ حسين مؤنس (ص ١٩٠) الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

٦- بينت الآيات الكريمة أن أي حكم عار من الدليل لا قيمة له، وأن الحكم الصحيح لا يمكن أن يتخلف عن دليل صحيح، وهذا يؤصل قيمة الدليل في منهج الاستدلال، لأنه إذا صح الاستدلال انحسم الخلاف، وتحتمت قيم الثبوت وصحت التصورات، واندحرت الترهات.

أهمية قاعدة ترتيب الحكم على الدليل :

تتمثل أهمية هذه القاعدة لمنهج الدعوة الاستدلالي فيما يلي:

١- إنها تجعل الداعي على ثقة بقضيته، مما يجعله أكثر حرصًا على تبليغها وبيان طبيعتها والدفاع عنها.

وبدون الدليل لا يمكن أن يتحقق للداعي هذا الثبوت، ولا تلك الثقة، ولا يخفي ما لهذا من تأثير سبلي علي قناعات المدعويين به، ولا يخفي ما للدليل من قيمة في معرض الإقناع والافتناع، وأول ما يطلب من الإنسان في دعواه الإتيان بالدليل.

٢- إنها تؤكد خصيصة من خصائص الدعوة الإسلامية من حيث كونها دعوة مبرهنة، ليست عارية من الأدلة، بل إنها تقدم الدليل بين يدي القضية لضمان قبولها، وتحقيق الإيمان، مما يجعل قضاياها محل قبول لا رفض، وأخذ لا رد، إذا ما خلصت العقول، وتلاشت المعوقات.

٣- أن مراعاة هذه القاعدة يمكن الداعي من نصب الأدلة بما يتفق ومعطيات العقل ومبادئه، وإقامة الحجج القاطعة والبراهين الثابتة، والأدلة الظاهرة مع مراعاة مستويات إدراك المدعو.

٤- ولا يخفي ما لهذا أو ذاك من أثر بالغ على ثبات الإنسان على القيم والمبادئ والفضيلة، وثباته على الحق والعدل.

المبحث الخامس اعتماد الأدلة اليقينية لا الظنية

اليقين الذي نقصده :

يعد اعتماد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم على الأدلة اليقينية لا الظنية واحدة من روائع قواعد المنهج الاستدلالي في معرض عرض القضايا الدعوية، وبيانها وتوضيحها، وإثباتها على نحو من اليقين.

وهذه القاعدة تنسجم مع التفكير السديد، والنظر العقلي السليم، ذلك أن العقل يقضي بأن العلم لا يأتي إلا باليقين، وأن الظن والخرص والتوهم والافتراض، والطرح العاري من اليقين بوجه عام من المستحيل أن يوصلنا إلى معلومات يقينية.

الظن الذي نعنيه :

على أننا لا نقصد بالظن هنا الاحتمال، فهذا أمر تحتمله بعض نصوص الشريعة^(١) وإنما نقصد به الحكم بغير علم.

فالظن بهذا المعنى لا ينتج عنه إلا ظن مثله، والوهم لا يترتب عليه إلا وهم، والخرص أو الحدس لا يترتب عليهما إلا خرص أو حدس، والافتراض معلومات احتمالية قد تثبت، وقد لا تثبت. كما أنه قد لا يسعفها الواقع في الثبوت .. لا سيما إذا نصب من الرؤي والتصورات التي تؤكد الافتراض، بل ربما ينطق الواقع بما ينقضه، وعلى كل فليس من بين ذلك كله ما يرقى إلى الدليل، لأنها مصادر تندفع

(١) علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف (ص ٤٣) وما بعدها، مرجع سابق، وقد سبق توضيح ذلك في بيان طبيعة الأدلة القرآنية (تراوح الدلالة القرآنية بين القطعية والظنية).

بالمهوي، وتتأثر بالبيئة، وهي مظنة خطأ محقق، إذ أنها لا تعتصم بمعارف الوحي، ولا تستمد من الواقع ما يؤكد صدقها، أو يدلل على حقيقتها.

أضف إلى ذلك أن نتائجها محل شك مطلق، من ثم فلا يمكن الوثوق بها، ولا يخفي ما لذلك من آثار خطيرة في مجال إثبات العقائد، ووضع قواعد الأخلاق والنظم الاجتماعية، وأصول الاقتصاد ومبادئ السياسة.

والظن والخرص كلاهما نتاج عقل محض من حيث طبيعته وكنهه وماهيته، بل إنه نتاج عقل عار من الدليل الصحيح، هذا فضلاً عن أن العقل ولو مارس دوره الإدراكي بدقة فهو محدود الإدراك.

من ثم يكون مظنة الخطأ، وبالتالي فهو يفتقر إلى من يصحح له خطأه، وخاصة فيما لا يمكن أن يقع تحت دائرة إدراكه، وليس بالضرورة أن ما يدرك عن طريق الحواس يكون موضع قبول مطلق أو تصديق مطلق، وإنما يكون موضعاً للأخذ والرد، والقبول والرفض.

وقضايا الدين لا يمكن أن تثبت بالظن، أو بأدلة احتمالية أو بأفكار عقلية، حتى لو كانت مقترنة بأدلة، إذ العقل لا يستقل باستصدار مثل هذه الأحكام، ولا يرقى إلى درجة وضع أصول وقواعد دينية عقدية أو تشريعية، لأن نتائجه قد تتناقض مع ذاتها في ذات الوقت أو في أوقات متغيرة، طبقاً لما تمليه الظروف، وتغير أسباب استصدار الأحكام.

وهذا سر تغيير القوانين الوضعية من آن لآن، ومن بيئة لأخرى، لأنها تمخضت عن رؤية غير متكاملة، ومصدرها غير معصوم، وورود الخطأ فيه قائم إن لم يكن محتماً.

على أن العقل إن صفا إدراكه، واستقامت مداركه، و ضبطت وسائله اتفق مع صريح المنقول.

ومن ثم نجد القرآن الكريم ينعي على المتحاكمين إلى العقل، الرافضين للدين،

المنكرين للرسالات، ذاك الاتجاه العقدي الفاسد، بل وينكره عليهم، ويتوعدهم على ذلك أشد الوعيد، لأنهم عطلوا وسائل الإدراك، ولم يستجيبوا لداعي الله، ولا لنداء الحق، وأخضعوا الدين لتصوراتهم وآرائهم، وأبوا إلا أن يحكمهم النزوع، وتدفعهم الأهواء !!!

تأصيل قاعدة اعتماد الأدلة اليقينية لا الظنية:

إذا تأملنا القرآن الكريم نجده مترعاً بالشواهد التي تدل على أنه اعتمد في منهجه الدعوي الاستدلالي، وخاصة في مجال إثبات العقائد وأصول الشرائع، على الأدلة اليقينية التي تفيد القطع والثبوت، ولا يتطرق إليها شك أو احتمال.

ومن هذه الآيات ما يلي:

قال تعالى:

١- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ^١ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى^٢ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ^٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ^٤ كَانُوا أَشَدَّ مِمَّنْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ^٥ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ^(١).

٢- وقال تعالى ﴿سُورِهِمْ^٦ ءَايَتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ^٧ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ^٨ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^(٢)﴾.

٣- وقال سبحانه ﴿إِنَّهُ زَظَنَّ أَن لَّنْ نَّحُورَ^(٩)﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا^(٣).

٤- وقال تعالى ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا

(١) سورة الروم (٨، ٩).

(٢) سورة فصلت (٥٣).

(٣) سورة الانشقاق (١٤).

جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾.

٥- ﴿وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ﴿٢٥﴾.

٦- وقال تعالى ﴿وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنْهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٦﴾.

٧- وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَتَاُؤِلَى الْأَبْصَارِ﴾ ﴿٢٧﴾.

٨- وقال تعالى ﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٨﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٢٩﴾.

٩- وقال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ؕ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِيقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾.

١٠- وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ ﴿٣٣﴾ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿٣٤﴾.

(١) سورة فصلت (٢٢، ٢٣).

(٢) سورة الجن (٧).

(٣) سورة القصص (٣٩).

(٤) سورة الحشر (٢).

(٥) سورة الكهف (٣٥، ٣٦).

(٦) سورة الجاثية (٣٢).

(٧) الضمير يرجع إلى اليهود في السياق السابق.

(٨) سورة البقرة (٧٨).

١١- وقال تعالى ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا خُرُصُونَ﴾^(١).

١٢- وقال تعالى ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾^(٢).

١٣- وقال تعالى ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خُرُصُونَ﴾^(٣).

١٤- وقال تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنْ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٤).

١٥- وقال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٥) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٥).

١٦- قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا خُرُصُونَ﴾^(٦).

١٧- وقال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾^(٧).

(١) سورة الأنعام (١١٦).

(٢) سورة الأنعام (١١٩).

(٣) سورة الأنعام (١٤٨).

(٤) سورة يونس (١٤٨).

(٥) سورة الجاثية (٢٣، ٢٤).

(٦) سورة يونس (٦٦).

(٧) سورة ص (٢٧).

١٨- وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُومُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأَنْثَىٰ ۚ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ ﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ۚ ^(١)

دلالات التأصيل:

إذا تأملنا هذه الآيات نجد ما يلي:

(١) إن القرآن الكريم ركز في منهجه الدعوي الاستدلالي على ضرورة الاعتماد على الأدلة اليقينية التي تفيد القطع والثبوت، لا على الظن الذي يفيد التوهم، ويقوم على محض افتراض، وهذا مدلول قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۚ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۚ ﴾ .

(٢) استنطق القرآن الكريم الواقع بالأدلة اليقينية، ولفت الأنظار إلى ضرورة البحث والتحري عن طريق التأمل والتفكر في آيات الخلق التي لا تقبل دلالتها شكاً أو احتمالاً، فهذه آيات الله تعالى في النفس الإنسانية، وتلك آياته تعالى في كونه، وهذه وتلك تنسجان انسجاً كاملاً مع العقل، وبهما يتحقق العلم، وينقطع الوهم، ويتداعي الظن، ويزول الخرص، وتدحض الحجج الواهية، إذ أنها تتناقض مع الواقع، ولا تثبت أمام العقل الصحيح، والنظر الثاقب،

وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ ﴾ .

(٣) بين القرآن الكريم بطلان العقائد والرؤي والتصورات التي قامت أو التي من الممكن أن يقيمها المغرضون المدعون على أساس الظن والخرص كعقائد الدهريين الذين قالوا "نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" وكانت مقولتهم في

(١) سورة النجم (٢٧ - ٣٠).

الخلق وإنكار البعث "إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع" !، وذلك الذي ظن أن الساعة لا تقوم، "وما أظن الساعة قائمة" وغرره الوهم" ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً"، وأولئك الذين ظنوا أن حصونهم ستمنعهم من إيقاع الله تعالى العذاب بهم، هو مدلول قوله تعالى "وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله" ولم يغن عنهم ظنهم من الله شيئاً" فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب".

وذلك الذين فسدت تصوراتهم حين ارتكبوا المعاصي، وظنوا ألا شاهد عليهم وأن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون.

وهذا مدلول قوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فأرداهم سوء ظنهم بالله تعالى ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. واستحقوا لعنة الله وساء مصيرهم ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

(٤) وركز القرآن الكريم على أن العلم والظن نقيضان لا يمكن أن يجتمعا، وأن الظن لا يمكن أن يثمر علماً أو يدل عليه، وأن العلم لا يمكن أن يتمخض عن ظن، وأن الظن لا يقوم مقام الحق ولا يغني من شيئاً، وهذا مدلول قول الله تعالى "وما لهم به من علم إن يتبعون يسمر إلا وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً".

(٥) بين القرآن الكريم عوامل النزوع إلى الظن من حيث أنه ينطلق من هوي محض، وتعطيل لوسائل الإدراك، وتعمية العقل، وخداع النفس، وتضليل القلب، وتشويش الفطرة، بل إن الذين اتبعوا الظن طريقة لإثبات عقائدهم ورؤاهم وتصوراتهم الفاسدة ألَّهوا هواهم وعبدوه من دون الله تعالى.

وأمثال هؤلاء يخالفون الأصول المعرفية التي قررها الوحي^(١) الإلهي، والتي تعتمد - كما يرى بعض العلماء والباحثين على ما يلي:

(١) ويدخل في ذلك السنة الشريفة باعتبارها وحياً من حيث المعنى.

١- العلم العقلي المبني على الدليل والبرهان.

٢- العلم الفطري المركوز في طبائع الناس كافة.

٣- الوحي الإلهي الداعي إلى الدين والإيمان بالمثل والقيم الحضارية^(١).

وهذه الأصول هي التي ينضبط بها الإدراك والتفكير، ويستقيم بها الاعتقاد والسلوك، وتُرسى في ضوئها القيم والمبادئ والأخلاقيات، ويصل بها العقل المعرفي إلى اليقين.

ولا غرو فالهوي يفسد في الحياة كل صالح، ويقبح فيها كل جميل..

وباتت آراء هؤلاء وعقائدهم مجرد دعوي كاذبة، وافتراء محض، لم يقيم على أساس من العلم، ولم يسعفها من الواقع ولا العقل دليل، فضلوا وأضلوا، وهذا مدلول قول الله تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾. وقوله سبحانه ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ آتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

(١) أبعاد التكوين العقلي للفرد في الإسلام: كارم غنيم (ص ٣٥) مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨٨ وفيه تفصيلات تؤكد ما ذكرناه، ومقارنات بين العقل العربي والعقل اليوناني في نظريتهما لأصول المعرفة.

المبحث السادس

المقابلة والتمييز

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم "المقابلة والتمييز"، وهذه القاعدة قيمتها العظيمة في ميادين العمل الدعوى، فهي جسم للمدعو بصدق وجدية طبيعة المتقابلات والمتناقضات والمتضادات، والتي ينبغي أن تكون لها صور فاصلة في العقول بحيث لا يحدث هنا قفز فوق الأسوار والفواصل والحدود القائمة بين هذه المتقابلات، فينشأ عن ذلك خبط أو لبس أو خلط، وبين هذا وذاك تضيع معالم الحقيقة، وتصير الصورة قائمة تمامًا لا يستطيع العقل التمييز بين عناصرها بتأثير عوامل التشويش.

وتأتي هذه القاعدة المنهجية لتبرز قيم الحق والصدق والعدل والخير والجمال، تجعلها ماثلة في ذهن المدعو في حين تكشف له دعاوي الباطل، وآفات الكذب، وقبائح الظلم، وعواقب الشر، وقبح القبح.

وليس على المدعو بعد ذلك إلا أن يقف بين هذه الحدود والفواصل لينظر عن يمينه تلك القيم والمثل والمبادئ العادلة، وعن يساره تلك القيم المردولة، ويتجرد من عوامل التأثير البيئي والعقدي الاجتماعي، ليفصل هو بين هذه المتقابلات في الحكم بروية وعقلانية .. أيهما ينبغي اتباعه، وأيها ينبغي إقصاؤه من الحياة، وتنحيته عن تدنيس آفاق الوجود، وتشويش الفطرة، وتعكير صفو الحياة.

وليحكم هو ف هذه القضايا المتقابلة: النور أم الظلمة .. الجمال أم القبح .. الطمأنينة أم القلق والتوتر .. الخير أم الشر .. الفضيلة أم الرذيلة .. الانضباط أم التسبب .. الحرية أم عبودية الهوى .. الهداية أم الضلال .. الغواية أم الرشاد؟! ثم يقيس على ذلك الإيمان والكفر.

وهكذا يعتمد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم من خلال هذه القاعدة على طرح هذه المتقابلات بكل حدودها وفواصلها أمام القسمة العقلية السديدة للموازنة والتمييز.

علمًا بأن معطيات هذه القسمة تعطي لنا قناعات ذاتية غاية في العقلانية تتفق مع قول الحكماء: "وبضدها تتميز الأشياء"، وبناء على الحكمة الراشدة: "لا يعرف الإيما من لم يعرف الكفر"، والحكمة القائلة: "الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يشعر بها إلا المريض"

وبالقياس أقول: لا يعرف لذة العطاء إلا من تجرع مرارة الحرمان، ولا يعرف قيمة البصر إلا من أبصر بعد عمي، ولا يعرف قيمة السمع إلا من سمع بعد صمم، ولا يعرف نعمة الإبانة إلا من نطق بعد بكم.

وهذا ما تقتضيه القسمة العقلية الصادقة، والحكمة الرشيدة، حيث إن تمييز الأشياء بضدها واضح الدلالة، كامل الإبانة على مخالفة النقيض وتمايزه من حيث الجوهر والمظهر، ومن حيث دلالاته الكائنة في ذاته، ودلالاته البارزة في مظهره.

والعقل لا يصعب عليه التمييز بين هذه الجواهر والظواهر، ولا يعيبه حسم أوجه التناقض والاختلافات بينها.

فلقد (من الله تعالى على العباد بعقول فدلهم على الفرق بين المؤتلف والمختلف، وهداهم إلى سبيل الحق نصًا ودلالة .. وكان عليهم تكلف الدلالات بما خلق لهم من العقول التي ركبها فيهم)^(١).

وهذا مبني على افتراض صحة العقل وسلامة النظر، وتهيئة الأجواء والظروف المناسبة له لضمان صحة الفصل بين هذه المتقابلات .. وإذا ما تجرد من الهوي والمزيج والبهتان والافتراء، ومن عدم الانصياع لوجه الحق الظاهر فيها.

(١) الرسالة للإمام الشافعي: تحقيق أحمد شاكر (ص ٥٠١ - ٥٠٢) مطبعة مصطفى البابي الحلبي. بدون تاريخ.

أما إذا لم يتجرد من ذلك فلن يصل إلى فصل واضح، ولا إلى تفريق بين المتناقضات، ولا إلى حكم صحيح فيها، وبالتالي تتيه عنه معالم الحق، ودلالات اليقين، وفيضمحل ويتلاشي، ويضيع بين أناس من المفترض أنهم عقلاء .. ولكن قلوبهم طويت على مرض، وعقولهم تقاصرت عن التجرد، وأبت إلا البعية، ورفضت الاستقلالية بالحق!!

تأصيل هذه القاعدة:

لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القضية وبين الأسباب والدوافع التي تدفع بعض العقول إلى الفصل بموضوعية بين تلك المتقابلات، وتلك التي تدفع البعض الآخر إلى الإنكار والتمرد، أو الإعراض واتباع الهوي.

فالقرآن إذن شخّص الداء، ووضح العلل، وبين العلاج، وعلى الإنسان أن يستعين بهذا المنهج الاستدلالي الرائع في القرآن في الحكم بين هذه القضايا، والفصل بينها فصلاً يريح العقل ولا يعييه، ويهديه ولا يشقيه.

ومن أدلة ذلك قوله تعالى:

١ - ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

٢- وقوله تعالى ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٢٥٨﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥٩﴾﴾.

(١) سورة البقرة (٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) سورة المائدة (١٥، ١٦).

٣- وقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(١).

٤- وقوله تعالى ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

٥- وقوله تعالى ﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾^(٣).

٦- وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٤).

٧- وقوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٥).

٨ - وقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾^(٦).

٩- وقوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٧).

١٠- وقوله سبحانه ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾^(٨).

(١) سورة الأنعام (١).

(٢) سورة الأنعام (١٢٢).

(٣) سورة إبراهيم (١، ٢).

(٤) سورة إبراهيم (٥).

(٥) سورة الأحزاب (٤٣).

(٦) سورة الرعد (١٦).

(٧) سورة فصلت (٣٤).

(٨) سورة السجدة (١٨).

١١- وقوله تعالى ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾^(١).

١٢- وقوله ﷻ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۖ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ۖ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۖ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾^(٢).

١٣- وقوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ﴾^(٣).

١٤- وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُمَسِّئُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾^(٤).

١٥- وقوله ﷻ ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾^(٥).

١٦- وقوله سبحانه ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٦).

١٧- وقوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾^(٧).

دلالات التأصيل:

١. حكمة التمييز بالنقيض:

يبدو مما سبق روعة منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم إذ يعتمد في

(١) سورة المائدة (١٠٠).

(٢) سورة فاطر (١٩ - ٢٢).

(٣) سورة الزمر (٩).

(٤) سورة غافر (٥٨).

(٥) سورة الحشر (٢٠).

(٦) سورة هود (٢٤).

(٧) سورة الجاثية (٢١).

نصب الأدلة على حكمة التمييز بالنقيض، ولا يخفي ما لذلك من دلالات تفيد القطع، وتقطع الوهم، وتخرج الإنسان من ظلمات الاعتقاد، إلى صحيح الإيمان، ومن انحرافات الأديان^(١). إلى صحيح الإسلام.

فالعقل عندما يتجرد للحق يستطيع أن يميز بين الخبيث والطيب، والحسن والسوء، والموت والحياة^(٢)، وبين من يميز ما على الأرض ويفقه الأسرار في آفاق الكون، ومن تطويه القبور .. ومن تدفعه الآمال، ومن تعييه الخيل.

٢. البينية الراشدة:

إن هذه "البينية" الراشدة بين الأشياء هي التي تبرز قيم الفواصل ودقة الحدود، كما تميز قيم المدركات في العقول، ومهايا الطباع من حيث الجد والهزل.

فهي "بينية" لا تسمح بذوبان المتقابلات وانصهارها وتلاشي الفواصل بينها، فضلاً بينها، فضلاً عن أنها لا تسمح باختلاطها أو التباسها.

إنها إذن تحافظ على "البعد البيني" ليبقي معرباً عن الاختلاف والتضاد، ولتبقى المساحة الفاصلة بين هذا أو ذاك شاغرة من محدثات التمويه والتعتيم، ممتلئة بالضوابط والقيود والشروط التي ترسخ معاني الفواصل، وتبرز قيم الحدود.

فمن تجرد عقله من الهوي، وانتصر على المعوقات الإدراكية يستقل بذاتيته في هذا البعد البيني، مما يؤهله للفصل في الحكم بين هذه المتقابلات.

أما من لم يتجرد من ذلك، ولم يتحر الدقة والإنصاف حتماً سيتيه في هذا "البعد البيني"، وتختلط عليه فيه طبيعة المتضادات وتتيه منه علامات التناقض، فيكون كمن يحاول رؤية الأشياء خلف ضباب كثيف، أو من يميز بين خيطين أبيض وأسود في ظلام الليل.

ومن ثم لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل، ولا بين الخبيث والطيب، ولا بين

(١) بفعل التحريف والوضع.

(٢) أقصد موت القلوب وحياتها، وهو المعنى الواضح في الآيات الكريبات.

الخير والشر، بل ربما يرى هذه المتقابلات معكوسة من حيث طبيعتها، فيرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، والخير شراً والشر خيراً، والخبيث طيباً والطيب خبيثاً!! وهكذا دواليك!!!

ومن كانت تلك حاله سلبت منه مقومات التمييز، إذ لم يعد يستشعر الفروق بين المتقبلات، وصار أعمى عن بصر، وميتاً عن حياة^(١)، فهو وإن لم يُعم حقيقة، إلا أنه صار كالأعمى، وإن لم يمِت إلا أنه نُزِل منزلة من مات.

وهذا مدلول قوله تعالى السابق: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿٦﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٧﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾.

ومدلول قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٢﴾﴾.

ومدلول قوله ﷻ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَلِمَتُونَ ﴿٣﴾﴾.

لعله قد اتضح مما سبق قيمة قاعدة "المقابلة والتمييز" لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن من حيث عرضها الحقائق بموضوعية وحيادية أمام المدعو، ليفصل في الحكم عن بصيرة، وليقرر بذاته - وعن طواعية وحرية واختيار - قراره بعيداً عن الضغوط أو المعوقات.

(١) تفسير الرازي (٢٦ / ١٥٠) مرجع سابق.

(٢) سورة الأعراف (١٧٩).

(٣) سورة الأعراف (١٩٣).

المبحث السابع

قاعدة الهدم والبناء

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم قاعدة: "الهدم والبناء" وأقصد بها: هدم الأفكار المضطربة والمختلة، والتصورات القاصرة والفاصلة، والعقائد الباطلة والمنحرفة، والنظم الاجتماعية البالية الجائرة، ونظم السياسات الاستدلالية التي تستذل رقاب العباد، وتلوي الأعناق، وتؤس الناس بالحديد والنار، وتدفعهم إلى مصير يجهلونه أو يتجاهلونه، ومحاربة صور العنف والتطرف والإرهاب، والتي سادت المجتمعات الجاهلية قبل مجيء الإسلام.

ثم تأسس لبناء وتأصيل العقائد الصحيحة، والنظم المنضبطة والتشريعات السديدة، وتنمية الوعي الفكري والثقافي، وضبط التصور الإدراكي لدى البشر بمختلف أجناسهم، وألوانهم وألستهم في أي مجتمع، وفي كل موضع قدم على ظهر الأرض، مما من شأنه الحفاظ على الكيان النفسي والاجتماعي والتركيبية البشرية بوجه عام.

منهجية القرآن الكريم في الهدم والبناء:

وقد اعتمد القرآن الكريم في ذلك منهجية قيمة تعتمد على ما يلي:

أ - منهجية التطهير.

ب - منهجية الإحلال والتأسيس.

أولاً: منهجية التطهير:

أما منهجية التطهير التي اعتمدها القرين الكريم، وهي الإزالة الكاملة لكل صور الانحراف العقدي والبغي والظلم الاجتماعي، والمادية الطاغية، والفلسفات النزاعة إلى الإباحية، ومظاهر وطقوس الروحانيات الغالية والمتطرفة.

إنها إزالة لا تُبقي أثرًا لفاسد أو منحرف، ولا تترك له موضعَ قدم يقف عليها ذات يوم في مستقبل الإنسانية وليشرئب ويطل برأسه الخبيثة ليجعل منها منازعًا لقيم الحق والصدق والعدل والجمال والخير.

وهذه المنهجية الرشيدة تتفق مع الواقع وتتفاعل مع العقل، وتنسجم مع الفطر السليمة، والنيات الحسنة.

ومما يؤكد هذا الحكمة القائلة "العضو الفاسد يجب بتره"، فإذا فسد عضو في جسد ما فسادًا يؤدي إلى استئصال المرض في سائر أعضاء الجسد فيجب استئصاله حفاظًا على الجسد، والتقصير في ذلك جريمة يعاقب عليها الشرع الحنيف، والعقل السليم، والعرف المنضبط.

وأعتقد أن منهجية الطب في القديم والحديث كانت تعتمد تلك الحكمة الراشدة في المعالجة، وهذا ما يبدو واضحًا في استئصال الأعضاء الفاسدة التي قد تنشأ عن مرض السكر، وكذا استئصال الخلايا السرطانية من الجسد كتي لا تستشري فيه وتفتك به، وترك هذه الخلايا أو الأجزاء العطبة يهدد بقاء الإنسان على الأقل صحيحًا سليمًا معافًا إن لم يؤدي به إلى المرض الساحق والهلاك الماحق.

ولا أعتقد أن عاقلًا يعترض على هذا، والعاطفة ليس لها دور هنا، والرحمة تكون في مثل تلك الحالات في بتر تلك الأعضاء لا في بقائها.

ولم يقف الحد - عقلاً - عند مجرد المعالجة، وإنما يسبق ذلك خطوات يطلق عليها "الإجراءات الوقائية" من الأمراض كالبعد عن الأماكن الموبوءة (منظنة العدوي) وتجنب المرضي بأمراض معدية كأمثال مرضي الإيدز، قياسًا على الأمراض التناسلية المعدية كالزهري وغيره، فلا يتزوج رجل بامرأة مصابة بالإيدز ولا العكس، بل إن المتحقق من إصابة أحد الزوجين بذلك المرض بعد الزواج يوجب التفريق بين الزوجين، إذ أن استمرار الحياة الزوجية في ظل تلك الحالات نذير خطر يتهدد الأسرة بكاملها.

فالعقل يقتضي أن الرحمة ظاهرة في التفريق بين هذين الزوجين، أو النهي عن الزواج ممن أصيب بهذا المرض ابتداء، ويقتضي أن الضرر ظاهر في "الإبقاء" كما في الحالة الأولى، أو "الإقدام" كما في الحالة الثانية.

ولم تقتصر الحكمة العقلية في التطهير على التطبيب بإزالة عضو أو نحوه، بل تعدت ذلك إلى مجال الدراسات والإنشاءات المعمارية وما في حكمها، حيث يكون تسوية الأرض التي تقام عليها المنشأة وتمهيدها بإزالة ما كان بها من آثار سابقة، ومن شأنها إعاقة المنشأ الجديد، إلى جانب دراسة التربة التي يقام عليها هذا المنشأ والاستعانة بعلم الجيولوجيا في هذا الصدد، إذ ينبني على هذا تقييم سياسية الإنشاء من تقدير مواد البناء والتسليح والميزانية وغير ذلك مما يتعلق بهذه العملية، وبعد ذلك - وليس قبله - يتم وضع اللبنة الأولى للمشروع، وهكذا.

وكذلك الحال في الزراعة حيث تقتضي الحكمة العقلية إزالة كل المعوقات التي تعوق النبات أو ترهقه، وهذا يقتضي دراسة نوعية التربة، وتسويتها ومعرفة نسبة الملوحة بها والقضاء عليها لجعل التربة قادرة على الاحتضان، ثم النظر إلى العوامل البيئية، والمناخ لتهيئة الجو المناسب للإنبات والنمو والتكاثر، وإلا فلن يكون هناك بارقة أمل في الإنبات وتعمير الأرض بالزراعة.

فالأرض الطيبة تنبت نبتة طيبة، ويستطيع الإنسان أن ينعم بخيراتها، أما الأرض الخبيثة التي لم تنبت من المستحيل أن تكون رحماً لنبات ما لم تؤهل أو تهيأ لذلك.

إذن فالحكمة العقلية تقتضي تأصيل مبدأ التطهير قبل البناء والزراعة، وأن أي بناء لم يقم على هذا الأساس سرعان ما ينهدم، ولم يقف هذا عند حد المحسوسات أو الماديات فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى مجال الأفكار والمعتقدات والمعنويات بوجه عام.

ففي مجال الأفكار تقتضي الحكمة العقلية التجرد من كل العوامل المؤثرة في الحكم، ومما يشوب الرؤي والأفكار، ويتجه بالتصورات نحو السلب لا الإيجاب، ولا بد من هذا التجريد لتهيئة العقل لإمكانية قبول أفكار مغايرة، وتهيئة القلب

للاعتقاد بعقائد صحيحة .. وإلا فإن إمكانية التلقي تكون منعدمة وسيبقى العقل يوسع من دائرة معتقداته القديمة، حتي يضيق دائرة تلك المعتقدات والأفكار المطروحة والمثارة أمامه ليفصل في حكمها، وتتطلب منه ضرورة الخروج بنتيجة.

والحكمة قائلة: (كل إناء مغول بما يملأ فراغه) فلن يقبل إناء من إناء شيئاً إلا إذا أفرغ ما به.

من ثم ندرك خطورة المؤثرات الفكرية البيئية، والتعصب للأفكار والعقائد البالية، وتلقف الأفكار الجديدة، والعقائد المغايرة بالرفض .. فقد ضيقت تلك العوامل مساحة وجودها، بل حاولت وأدها دون أ، تحاول تصورها، فأوصدت أمامها كل نافذة يمكن أن يتسلل منها إلى العقل وسيلة إقناع جادة هروباً من الاعتراف بالحقيقة لكن ذلك أعيها، وبقيت قيمة الحق راسخة.

بيد أن هناك عقولاً أفرغت ما بها من أفكار وموروثات، تجردت للحق، وتمحضت للصدق، وأزالت كل معوقات التصور الصحيح، وموانع الحكم الرشيد، فأدي ذلك بها إلى نتائج إيجابية حيث أدركت قيمة الحق، واهتدت إليه، فغيرت به مصيرها، وعدلت من مناهج تفكيرها، وحتى بلغت من الرشاد مبلغاً كان من المستحيل بلوغه دون أن تتجرد من ذلك.

التطهير قسمة عقلية كلية لا تقبل التجزئة:

تقتضي الحكمة العقلية أ، يكون التطهير كلياً لا جزئياً، إذا ما أراد العقل حلاً جذرياً لمشكلة ما، فالعقل الرشيد لا يقبل أنصاف الحلول، لأنها تكون بمثابة "قنابل موقوتة" تنسف القديم الكائن فيه والجديد من الأفكار معاً، أو تنسف الجديد منها فقد، وتبقي على القديم البالي الموروث، وهنا ترجع العقول إلى درجة (الصفرة) مرة أخرى، تضرب بعرض الحائط كل وسيلة إقناع، لأنها قبلت تجزئة المعقولات من العقائد الصحيحة والأفكار الرشيدة، والشرائع القويمية، فلم تصل إلى حق كامل مجرد، وإنما إلى أنصاف حقوق، وهذه قيم واهية تضل ولا تهدي، فهي لا تغني من الحق شيئاً.

ولا يمكن الإبقاء على نصف ما بالإناء من ملح أجاج أ ما يقل أو يزيد، إذا ما أردت أن أملاه لأشرب ماءً عذباً ذلاًلاً.

كذلك لا يمكن الإبقاء على نصف ما بالعقل من أفكار خاطئة أو ما يقل أو يزيد إذا ما أردت البحث عن أفكار صحيحة، إذا لا يستوي الخبيث والطيب.

فلابد إذن من إفراغ العقل تماماً من كل مقدمة فاسدة لضمان نتائج صحيحة، ذلك أن قيم العدل والحق لا يمكن أن تجزأ، ففي تجزئتها مضیعة لها، والإنسان لا يمكن أن يطلق عليه أنه عادل في حكمه بنسبة (٩٩٪)، لأنه يجب أن يتحري ذلك بنسبة (١٠٠×١٠٠) فتجزئة العدل إلى نسب لانصف أو الربع أو الثلث أو ما يزيد أو يقل عن ذلك واقع غير منضبط.

وهذا مقتضي الحكمة العقلية القائلة (نصف الحق كل الباطل) ذلك أنه إذا حكم لإنسان في خصومة ما بنصف حقه فقط، فقد أضيع منه النصف الآخر، وهفي ذلك مضیعة للحق الكامل، وهذا باطل.

القسمة الكلية لا تنفي التدرج:

مما ينبغي فهمه أن القسمة الكلية العقلية لا يمكن أن تتنافي أو تتناقض عقلياً مع سنة التدرج، لأن التدرج يعتبر مرحليات للوصول إلى غاية كلية في النهاية، والتدرج إنما يراعي قدرات النفس وطاقاتها ويكون هذا في إطار التشريعات على سبيل الترقى والتعود لا التجزئة.

أما القسمة الكلية فتتخلص في مجال العقائد الصحيحة وما ينبغي عليها من أفكار منضبطة.

فلا يمكن التسليم للعقل بأن للكون إلهين بدلاً من ثلاثة، ومن المستحيل التسليم إلا بإله واحد، كما لا يمكن قبول بعض الصفات الإلهية ورفض البعض الآخر، أو تعطيلهما، كما لا يمكن الإيمان بالرسول وإنكار الوحي والعكس، ولا الإيمان بجملة العقائد وإنكار اليوم الآخر.. وهكذا.

فإما أن يقبلها العقل بصورتها الكية الكاملة فيصير موحدًا مؤمنًا، وإما أن يرفضها كليًا فيصير مثلثًا أو مشيًا أو كافرًا أو ملحدًا أو مشركًا ويتحمل هو نتيجة قراره.

فهذه أصول تضبط بها العقائد وتسان، والعقل يقتضي حفظ الأصول وصيانتها، مثلما يراعي حفظ الفروع.

ثانيًا: منهجية التأسيس والبناء:

في ضوء هذا النهج الذي تقتضيه القسمة العقلية في التطهير الكامل لكل المعوقات التي يمكن أن تسبب في المستقبل القريب أو البعيد، أو في الوقت الآني مشكلة فكرية تتهدد إرساء قيم العقائد الصحيحة، والشرائع الصادقة، وقيم الحق المطلق.

وطبقًا لما تمليه من ضرورة تلافي هذه المشكلات، والقضاء عليها تمامًا .. في ضوء هذا النهج، وبعد مرحلة التطهير تأتي منهجية البناء والتأسيس، وقد تطهرت العقول من كل ما يعوقها عن النظر الصحيح والتأمل الصادق، والنظرة الثاقبة. وصفت النفوس .. ونهيات الفطر لتقبل كل ما جاء عن الحق سبحانه وتعالى من عقائد وشرائع وأخلاقيات وقيم ومبادئ تحقق لمجتمع الأمن والطمأنينة، وللعقل الرشاد والاستقامة، وللنفس الاستقرار والثبات، والعزة والكرامة.

فالإنسان بقدر عقله، والعقل بقدر صدقه، وصدقه بقدر صفائه ونقاؤه.

ولا يمكن أن تقبل القسمة العقلية نجاح التأسيس والبناء للدين الحق ما لم تطهر القلوب والعقول والنفوس من دنس الباطل، ورجز الشيطان ونزعات النفس، وهواجس الخاطر، وانحرافات العقائد، وظلم القوانين والأعراف وطغيان الواقع.

من ثم نجد القرآن الكريم يثير العقل إلى النظر في مقدمات تفضي إلى نتائج تقتضي فساد التصورات العقدية التي سادت البيئة العربية والعالم آن مجيئه، وتبين انحرافات الشرائع، وظلم القوانين، وسطوة الأعراف والتقاليد، وتبين خطورة الاستكانة لذلك الواقع الذي يضم في طياته كل صور الانحراف والفساد.

وهكذا جاء الإسلام في منهجه الاستدلالي ليقيم في العقل ثورة على كل فاسد، ويدعوه إلى ضرورة تغيير ذلك الواقع، وتطهيره من تلك الصور الفاسدة وذلك النهج الفكري المتداعي.

ثم تأتي مرحلة "التأسيس والبناء" كمرحلة ثانية من مراحل منهجية الاستدلال متزامنة مع مرحلة التطهير، غير منفصمة عنها إيقانًا بحتمية البديل الصالح للموروث الفاسد في صور مختلفة، كالمقارنات، أو التمثيل، أو إصدار الحكم ابتداءً.

وهذه منهجية أرسى القرآن الكريم قواعدها في تأسيس أو تأصيل العقائد، وإكمال كيائها البنائي المتكامل، فقد هدم عقائد التعددية الإلهية بدءًا بـ "الإثنيية" وموروثًا بالتثليث، وإبطال كل صور الشرك، ليقيم التوحيد الخالص لله تعالى.

وهدم عقائد الملاحدة الذين ينكرون وجود إله في الكون، وينكرون الدين لإثبات قضايا الوجود الإلهي، وتأصيل فطرية الدين في النفس الإنسانية. كما هدم عقائد الدهريين الذين نسبوا الخلق إلى الدهر، وأنكروا الإحياء بعد الموت لإثبات الصانع، وتقرير عقيدة البعث.

وهدم عقائد الكفار لإثبات وحدانية الله تعالى وإبطال الندية وعبادة ما سواه. وهدم عقائد اليهود المادية في الإله، وعقائد النصارى من حيث القول بالنبوة، والحلول والاتحاد وغيرها لنفي صفات المثلية والمشابهة عن الله تعالى.

وهدم عقائد عبدة الكواكب ليثبت أن إله الكون يجب أن يكون ثابتًا لا يتغير ولا يزول، وأن يكون منزهاً عن الأغيار.

كما هدم عبادة الأصنام، ليثبت أن النافع والضار هو الله ﷻ وحده، وأنه تعالى لا تحده حدود الزمان ولا المكان.

وهكذا دواليك.

إنها إذن منهجية قديمة .. منهجية "هدم" و "بناء" .. هدم لفاسد وإِ ، وبناء لصالح قوي باقٍ.

وهكذا يرسى الإسلام قواعد العقيدة الحقّة في عضون إيطاله لفاسد الاعتقاد، ويبين سداد الفكرة والنظرة المنضبطة بينما يوضح أوجه القصور والعجز في مدارك العقول.

ثالثاً: الوقاية:

تقتضي الحكمة العقلية "صيانة" المبنى بعد الإنشاء والتأسيس من التصدع والانهار، ومثلما تقتضي وضع الضوابط لصيانة المعتقدات والأفكار من التفلت والانحراف.

فليس التأسيس والبناء فقط هو الغائي، وإنما الحفاظ عليه غاية الغايات.

ولم تكن غاية "الهدم والبناء" كواحدة من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم مجرد تأسيس وإرساء قواعد الاعتقاد الصحيح، وإتمام بنائه الناصر، وإنما عنيت بإبقاء هذا البناء شامخاً لا يمس، ومصوناً لا ينال منه، وعنيت بأن تكون التوجهات العقدية في ذات المدعوين قوية وراسخة، كي لا يضلوا بعد هذى، ولا ينحرفوا بعد استقامة، وقد أدركوا لذة الإيمان، ومرارة الكفر، وحسن الاعتقاد الصحيح، وقبح الاعتقاد الفاسد.

إنه يجب عليهم قطع خط الرجعة إلى الماضي والانتكاسة فيه مروراً بذلك إلى نقطة الصفر.

كما يجب عليهم قطع أي صلة بالعقائد القديمة، وموالاته الظالمين ومصادقة المنحرفين، أو الحنين إلى الأعراف والتقاليد البالية موروثات الآباء الفاسدة، ونعرات المجد الزائف، وحتى لا يتأثروا بشيء من ذلك.

منهجية القرآن الكريم في الهدم والبناء:

لم تكن قاعدة الهدم والبناء في المنهج الاستدلالي في القرآن الكريم عملاً غير

منهجي، إذ لم تكن من قبيل السرد الذي لا يراعي الواقع، ولا يلتفت إلى قدرات العقل وطاقات النفس، وإنما كانت عملاً يقوم على المنهجية القومية في التغيير الكائن في النفي والإثبات والنقض والإنشاء.. والإحلال والتركيب.

فقد اعتمد المنهج الاستدلالي في تقعيد هذه القاعدة الاستدلالية فيما يبدو على ركيزتين:

أولاً: بيان أوجه الفساد والعلل.

ثانياً: بيان قيم البناء الراشد وغاياته.

أما بيان أوجه الفساد والعلل: فقد ركز القرآن الكريم في منهجية استدلاله عليه تركيزاً كبيراً، إذا أن أهميته تأتي في بيان أن القرآن الكريم لم يثر على المعتقدات والأفكار والتصورات المنحرفة والواحية لمجرد الثورة فقط، أو الاتجاه إلى التغيير، ولم يكن هدمه لها ضرباً من الاعتساف والمصادرة، وإنما كان يقوم على بيان أوجه الفساد والعلل حتى تبرز في العقول خطورتها، وتقنع بضرورة التغيير، نظراً لما يترتب على ذلك من خطورة على مسيرة الاعتقاد الصادق، والتفكير الواعي.

وأما بيان قيم البناء الراشد: فقد أبرزها القرآن الكريم أيضاً في معرض الاستدلال على عقائده الصحيحة، وشرائعه المنضبطة والمتوازنة، كما أبرز أوجه الحق فيها، وبين آثارها على الفرد، وغاياتها التي تهدف إلى عمارة الكون بدين الحق، وإخراج الإنسان من الظلمات إلى النور.

تأصيل هذه القاعدة:

لا مرية أن في القرآن الكريم بيات كثيرة تؤصل لقاعدة "الهدم والبناء" كواحدة من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي.

ومما يدل على ذلك ما يلي:

(١) قول الله تعالى : ﴿ تَٰلْقَمَ ۖ وَمَآ يَسْطُرُونَ ۝١١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝١٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝١٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝١٤ فَسَتُبْصِرُ ۝١٥ ﴾

وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيْبِكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوْ تَدْعُهُمْ فَيُدْهِنُونَكَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾

(٢) وقوله تعالى ﴿قَالُوا﴾ (٢) مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُم وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَدِيْفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَ أَفْعَصِيَّتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

(٣) وقوله تعالى ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

(٤) وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ

(١) سورة القلم (١ - ١٠).

(٢) أى قوم موسى عليه السلام له بعد عودته من الميقات. وقد صمعو العجل وعبدوه من دون الله تعالى.

(٣) سورة طه (٨٧ - ٩٨).

(٤) سورة الكافرون.

٦١ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي
 لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٦٢ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ
 ٦٣ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ٦٤ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦٥ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ
 أَتُخْذُونَ فِي اللَّهِ وَلَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ
 رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٦٦ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٦٧ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا
 تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ
 بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٦٨ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ
 الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (١)

(٥) وقوله تعالى ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا
 تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٧ ﴾ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٢)

(٦) وقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا أَن تَبْتَئِنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ٧٤ ﴾ إِذَا
 لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٣)

(٧) وقوله تعالى ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن
 كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ٣٧ ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٣٨ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى
 وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ٣٩ قَالَ أَلْقُوا ٤٠ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
 وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ٤١ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ
 تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ٤٢ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٤٣ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا

(١) سورة الأنعام (٧٥ - ٨٢).

(٢) سورة هو (١١٢، ١١٣).

(٣) سورة الإسراء (٧٤، ٧٥).

صَغِيرِينَ ﴿١٣﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٤﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١﴾.

(٨) وقوله تعالى ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢).

(٩) ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشَرَ سُورِ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣﴾ فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي رِزْقِ الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾﴾.

(١٠) وقوله تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٤﴾﴾.

(١١) وقوله تعالى ﴿مَا تَجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴿١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرِسْوِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ

(١) سورة الأعراف ١١٣ - ١٢٢

(٢) سورة الأنفال (٨).

(٣) سورة الأعراف (١٩٣).

(٤) سورة الأعراف (١٩٣).

وَأَزْوَاجَهُمْ وَذُرِّيَّتَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَّعْتُمْ فَاسْمِعُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٢٢﴾

دلالات التأصيل:

عندما نتأمل بعين ثاقبة، وبصيرة نافذة، ونظرة فاحصة هذه الآيات الكريمة نجدها واضحة الدلالة على تأصيل هذه القاعدة المنهجية لمنهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم: "قاعدة الهدم والبناء" لما يلي:

١- قوضت الآيات الكريمة قواعد البنيان العقدي المنحرف والذي ساد فترة من الزمن في بيئات مختلفة، وأنحاء متفرقة من الأمم والشعوب، وحتى تاهوا في ضروب الاعتقاد الفاسد، وعاشوا تحت وطأة الأوهام والظنون.

وهذا مدلول قوله تعالى "ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب".

ومدلول قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: "وحاجه قومه قال أحتاجوني في الله وقد هذان لا أخاف" .. الآية. ومدلول قوله تعالى عنه أيضًا "وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً فأبي الفريقين أحق بالآمن إن كنتم تعلمون".

(١) سورة غافر (٤-١٢).

٢- بينت الآيات الكريمة أن الباطل ليس له قد يقف عليها.. لأنه يفتقد أدلة مصداقيته، بل يحوي بين طياته أدلة فسادة وعلامات بطلانه، وهذا مدلول قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً﴾^(١).

٣- كما أشارت إلى أن الحق قيمة لا تقبل التنازل أو المداينة وقد نهى الرسول ﷺ عن الميل لمداينة المشركين الذين تمنوا مداينته بل وعرضوا عليه ﷺ أن يتعبد بدينهم عامًا ويتعبدون بدينه عامًا، وهذا مدلول سورة الكافرون ﴿قُلْ يَتَّيْمُوا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(٢) وَلَا أَتُمِّعُ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ.. إلي أن قال تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما بينت الآيات الكريمة أن الله تعالى حفظ رسوله ﷺ من الميل إليهم، "ولو لا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلًا".

وهكذا أو جبت الآيات ضرورة أن تكون هناك فواصل قوية وراسخة، وحدود واضحة تأبي الخلط بين قيم الحق وبالباطل، أو حتى مجرد المساس بقيم الحق، ومبادئه العادلة، ومهجيته المعصومة وأنه لا بد من أن تكون قوي الحق متحققة بالثبات لتستطيع الصمود والتحدي لقوى الباطل وجبروته وبطشه، وهذا مدلول قوله سبحانه: "فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين" وقوله تعالى "ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون".

٤- كما أشارت الآيات الكريمة إلى علل الفساد والانحراف العقدي من اتباع الهوي، وتغلغل النزعة المادية، وتغيب العقل، وأشارت إلى حتمية إزالتها، وضرورة المعالجة، وتقديم التصور الصحيح للدين والأصول والقواعد الصادقة لإرساء عقيدة صحيحة وتحقيق قيم البناء العقدي الراشد.

٥- كما بينت الآيات الكريمة محاسن هذا البناء العقدي الصحيح، وأنه أثر لانضباط الكون، وتحقيق التوازن النفسي، وأنه يهدف إلى تحقيق مصالح الإنسان

(١) راجع في هذا: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للعلامة برهان الدين البقاعي (١١ / ٤٨٤) مكتبة ابن تيمية، ط (١) ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، وفتح البيان في مقاصد القرآن الكريم: للعلامة أبي الطيب البخاري (٧ / ٤٣٢) المكتبة العصرية، بيروت ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

العاجلة والآجلة، وأن الملائكة تتولي الدعاء لمن صدقت عقيدتهم، وكمل إيمانهم، واستقامت سيرتهم "فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم .."
"الآيات.

٦- وأصلّت الآيات الكريمة ضرورة مراعاة الجانب الوقائي الذي يصون العقائد والشرائع من الانحراف، ويحفظ الإنسان من التردد، وذلك بالنهى عن الركون إلى الظالمين، وهذا مدلول قوله تعالى "ولا تركزوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار".

المبحث الثامن

مراعاة مستويات الإدراك

من قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم "مراعاة مستويات الإدراك في إنشاء الأدلة"، فقد راعي القرآن الكريم في نصب الأدلة الفروق بين المدارك العقلية، وتفاوت العقول في فهمها والوقوف عليها حيث تتفاوت دلالاتها بين الظهور والخفاء، فقد تمثل في مخيلة البعض على نحو من الجلاء والوضوح، وقد تمثل في مخيلة البعض على نحو من الجلاء والوضوح، وقد تمثل في مخيلة الآخرين وهم يعجزون عن فهمها، لا لأن الأدلة تأتي فوق مستوى الإدراك العقلي، وإنما لأن هؤلاء لم يتأهلوا لفهمها وإدراك كنهها وماهيتها ومقتضياتها ونتائجها وأحكامها، إذ أنهم ليسوا من طلاب العلم وأهل الاختصاص الذين يستطيعون بناء المقدمات، وترتيب النتائج عليها، ونصب الأدلة واستنباط الأحكام منها، وإجراء القياسات التي تقتضي يقظة ووعياً لفهم أوجه الشبه والفروق بين المقيس والمقاس عليه، من حيث ما يتفان فيه أو يختلفان، ومن حيث طبيعة كل منها، والمصالح المتحققة فيهما، يختلفان، ومن حيث طبيعة كل منهما، والمصالح المتحققة فيهما، فإن إجراءات القياس تأتي على نحو من الدقة والعمق لتستوعب كل دلالات الحجج والبراهين والأدلة والشروط^(١) والفروق والعموم والخصوص، والإجمال والتفصيل، والإطلاق والتقييد، وغير ذلك من مباحث الأدلة، ومناهج التفكير، وقواعد الجدل ومبادئه وآدابه ... الخ.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، تحقيق عصام الصباحي (١/ ١٢٠) وما بعدها، دار الحديث، ط: (٣) ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م، والموافقات للإمام الشاطبي (٣/ ٢٣٢) مرجع سابق.

مراعاة طبيعة عمل العقل:

وقد جاءت هذه القاعدة لتراعي إلى جانب ما سبق طبيعة عمل العقل، الذي يعتمد على وسائل حسية قاصرة عن إدراك المدركات إدراكًا كليًا مطلقًا، لأنها تعمل في نطاق قدرتها، ووفقًا لطبيعتها التكوينية البشرية.

فالماديات هي مادة إدراكها، وكذلك المعنويات، بيد أن إدراكها للمعنويات يخضع لضوابط وقيود.

ولنا أن نفهم هذا في ضوء طبيعة عمل الوسائل الحسية مثل السمع والبصر واللمس والشم والتذوق، فثمة مدركات يستطيع البصر إدراكها إدراكًا مجردًا، وأخرى لا يستطيع إدراكها إلا بوسائل تكنولوجية دقيقة كالمهجر أو الميكروسكوب، ومدركات لا يمكن أن يدركها لا بهذه ولا بتلك.

فهو لا يستطيع إدراك الفيروسات ولا الكائنات الدقيقة بعينه المجردة، كما لا يستطيع إدراك أجرام في السماء تباعدت عن العين حيث دَقَّت مع عظمتها، ولطفت مع صخامتها، فللبصر درجة دنياً ودرجة قصوى لا يستطيع أن يدرك ما دونها ولا ما فوقها.

وقس على ذلك السمع فثمة درجة دنيا ودرجة قصوى تدرك الأذن بها الأصوات، فلا تستطيع أن تدرك ما دون مستوى السمع، لضعف موجاته الصوتية، كما لا تستطيع أن تدرك ما فوق مستوى السمع مع قوته كالأصوات الصادرة عن حركة الكواكب والأجرام الضخمة في الكون مع قوتها. والله تعالى في كونه أسرار.

أضف إلى ذلك أن العلم الحديث أثبت (أن العقل يعجز عن إدراك المادة التي هي موضوع إدراكه إدراكًا مطلقًا، حيث بين أن العقل حتى الآن ما زال يجعل إدراك بعض جوانب المادة التي يدركها ويؤمن بها)^(١).

(١) راجع الثقافة الإسلامية والتحديات المعاصرة : تأليف د/ حسن عيسى عبد الظاهر وآخرون (ص ٢٣) مطابع الدوحة الحديثة المحدودة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م بتصرف.

وإذا كان هذا طبيعة العقل الخاص - عقل المتخصصين والباحثين - فما بالك بإدراكات العوام.

في ضوء ذلك نرى القرآن الكريم يخاطب العقل طبقاً لدرجة ثقافته وطاقاته الإدراكية، وقدراته الذهنية، فهو يخاطب الفيلسوف بما يشبع نهمة المعرفي، ويثير في ذهنه قضايا تغري ملكاته الإدراكية فيعرض عليه القضايا في معرض الإثبات أو النفي في صورة مقدمات عقلية^(١) ونتاج، وبراهين وأدلة وحجج، لأن هذا العقل الخاص أَلِفَ مناهج البحث، والتفكير العميق، والتحليل التركيب، والتأمل الفاحص .. إنه يلف الكون في ذاته، ويحاول جاهداً احتواءه، والتنقيب عما استودع فيه من أسرار وآيا وعبر.

وفي ذات الوقت يتوجه إلى عقول العامة البسطاء في طرائق تفكيرهم، والذي لا يخترقون لُبَاب المعاني، ولا يسِرُّون أغوار الأفكار، ولا يستطيعون تحليل القضايا، بل يتلقونها بظواهرها، ولا يدركون علاقتها وعواهنها.

إنه يتوجه إلى هذه العقول بما يتفق وتركيباتها الفكرية، وقدراتها البسيطة على التأمل والتفكير والنظر.

وفرق بين هؤلاء وأولئك .. بين من لا ترضيه النظرة السطحية بل تضايقه لأنها تشعره بضآلة عقله، وبساطة تفكيره، وبين من لا يستطيع تجاوز الظواهر السطحية للأفكار، وتشعره بمحاولات اختراقها بالعجز والإعياء.

فلو خاطب القرآن عقول الحكماء والفلاسفة وأصحاب المنهج الجدلي، والرؤية النقدية بالأسلوب الذي يخاطب به العوام، حيث يلفتهم إلى الظواهر فحسب والعكس، لضاق بهم منهجه، وما وجدوا فيه متعة الإقناع، ولذة المؤانسة، وبالتالي يملوه، وينكروه، ويحذوه.. ويكون الإسلام قد خسر قطاعاً ذا قيمة قد يكون

(١) ينبغي ألا يتوهم من هذا أن القرآن الكريم به نتاج عقلي، حشا لله، وإنما يقصد بهذا أن مقدمات القرآن في خطابه للعقل تتفق مع إدراكاته وتنسجم مع طبيعته، وهذا أبلغ وأكد في الإقناع.

أقدر الناس على فهمه، وأكثرهم تطلعاً إلى نشره والدعوة إليه، وهذه خطوة رائعة على طريق التحرير العقلي، تستوعب كل القدرات والطاقات والإمكانات على اختلاف طبيعتها ودرجتها (فما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل، ووضعتة في موقعه الصحيح، كهذه الخطوة: تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتمثيل والأوثان، إلى محبة الحق، الذي لا تلمسه الأيدي، ولا تراه العيون، إنه كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب) (١).

هذا بناء على مخاطبة العقل بما يتلائم ويتناسب مع طبيعة إدراكه، وطريقة تفكيره.

لذا نجد أن من حكمة القرآن الكريم في منهج الاستدلال مراعاة الفروق بين المدركات، ومراعاة مستويات العقول في إدراكها.

تأصيل هذه القاعدة:

لا مزية أن تدبر آيات القرآن الكريم، ودراسة منهجيته القويمة توقفنا على آيات ودلالات تؤصل قاعدة "مراعاة مستويات الإدراك" كأحد قواعد منهج الدعوة الاستدلالي.

ومن هذه الآيات الكريمة ما يلي:

١- قول الله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَآءِ الْآلَبَبُ ﴾ (٢).

٢- قوله ﷺ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ۚ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ وَمِنَ

(١) إعادة تشكيل العقل المسلم: عماد الدين خليل (ص ٣٥) مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ بتصرف يسير.

(٢) سورة الزمر (٩).

النَّاسِ وَالِدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١﴾

٣- قوله تعالى ﴿أَمْ آتخذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٧﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿١٨﴾

٤- وقوله تعالى عن الحوار الذي دار بين فرعون ونبي الله موسى ﷺ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿١٧﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿١٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٢٠﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٢١﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِبْرَاهِيمَ بِكُلِّهَا فَكَذَّبَ وَابْنَى ﴿٢٣﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٢٤﴾ فَلَنُتَيْنَكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٢٥﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٢٦﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٢٧﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَاحَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٢٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ تعالى ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيهِمْ تُخِلُّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٣٠﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٣١﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٣٢﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٣٣﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبُجًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٣٤﴾

٥ - وقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ

(١) سورة فاطر (٢٧، ٢٨).

(٢) سورة الأنبياء (٢١ - ٢٣).

(٣) سورة طه (٤٩ - ٦١، ٦٥ - ٧٠).

إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ۖ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾^(١).

٦ - وقوله تعالى ﴿وَأَيُّهُمْ آلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٥٠﴾﴾^(٢).

٧ - وقوله تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٥١﴾﴾^(٣).

دلالات التأصيل:

كما هو دأبه يمتعنا القرآن الكريم بدلالاته المنهجية الثرية، وإطلاقاته النديّة على مدارك الإنسان ومجاري العقول، ومنافذ القلوب البصيرة لنستنبط منها دلالات التأصيل لهذه القاعدة "مراعاة مستويات الإدراك" كواحدة من أهم قواعد منهج الدعوة الاستدلالي في القرآن الكريم. وإننا لنلمع إلى هذه الدلالات فيما يلي:

أولاً: تقرير اختلاف العقول:

تقرر الآيات الكريمة في ضمنية دلالاتها أن العقول مختلفة في مجاريها ومستويات إدراكها، وهذا يرجع إلى ما يلي:

- ١ - طبيعتها التكوينية.
- ٢ - الوهب الإلهي.
- ٣ - إمكانيات الكسب البشري وطاقاته وقدراته.
- ٤ - إعاقة العقل عن التفكير والنظر والتأمل.

(١) سورة الأنعام (٤٦، ٤٧).

(٢) سورة يس (٣٧ - ٤٠).

(٣) سورة النمل (٨٨).

وهذا مدلول قول الله تعالى (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب).

إنما ينتفع بالتذكرة أصحاب العقول السليمة^(١) التي جردت عنها كل معوقات الإدراك، وهذه قاعدة عامة في التفريق بين من يعي الحكمة ومن لا يعيها، وبين من يعلم ومن لا يعلم، وبين من يفكر ومن يتقاعس عن التفكير، وبين من امتلك أدوات النظر الصحيح ومن لم يملكها، ويترتب على ذلك استجابة وإقدام، أو إنكار وإحجام.

ولعلنا قد أشرنا إلى شيء من ذلك في بيان قاعدة "المقابلة والتمييز" لكن مقام الدلالة هنا مختلف عن ذلك.

ثانيًا: آيات تراعي الفوارق بين العقول:

لئن كانت آيات كريمات قد جاءت لتقرر هذه الفوارق في مستويات الإدراك بين العقول، فقد جاءت آيات أخرى لتراعيها، وتؤسس على ذلك خطابًا يتوجه إلى كل منها على قدر طاقاته وقدراته.

فقد راعت طبيعة ذوي الملكات الإدراكية الخاصة سواء نيلت بالجوهر الإلهي أو بالكسب، كما راعت عقول ذوي التفكير البسيط الذين لا يمتلكون تلك الملكات، ولم يكن لهم بمناهج التفكير سابق عهد.

ونستطيع أن نلمس شارات هذه الدلالة في مخاطبة العقول البسيطة بالظواهر الكونية المعتادة والمألوفة التي ترمقها أعينهم كل صباح، وتلفها كل مساء، كحركة الشمس والقمر التي لا يشكون في يقينيتها، وهي تكابد صفحات السماء ليلاً^(٢) ونهارًا.

بيد أنك قد لا تلمس هذه المعاني بنفس البساطة والظهور في خيالات هؤلاء

(١) راجع تفسير روح المعاني للإمام الألوسي (١٣ / ١٣٩) مرجع سابق، وفتح القدير للشوكاني (٣ / ٧٩) در الفكر، بيروت ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(٢) الشمس لا تغيب عن كبد السماء وإنما يختلف موقع الأرض منها فتحالتها تغيب.

عندما تتأمل خطاب القرآن الكريم لأصحاب التفكير الدقيق، والنظر الثاقب، الذين يدركون قيم القياس الدلالية، ويستطيعون استنباط أوجه الشبه وصور المحاكاة.

وقد تمثل ذلك في حديث القرآن الكريم عن حركة الأرض بإشارات ضمنية لا تصريرية، يفهمها ذوو الملكات الخاصة ولا يفهمها الإنسان البسيط الذي لا يدرك من الأمور إلا ظواهرها.

فقد عبر عن حركتها بحركة الجبال التي تراها العين ساكنة، وشبهها بحركة السحاب ليقس الإنسان الحركة الأولى بالحركة الثانية. لكن حركة الجبال لا يمكن أن تجري والأرض ساكنة حقيقة، فاستلزم ذلك حركة الأرض، وهكذا يأتي القياس وتكون المحاكاة والمشابهة، ولا يستطيع أن يدرك ذلك الإنسان العادي.

ثالثاً: معجزة نبي الله موسى ﷺ وإدراك السحرة وعقول البسطاء:

لا مرية أن إدراك سحرة فرعون بحقيقة سحرهم يختلف اختلافاً كبيراً عن إدراك البسطاء، الذين لا يعرفون طرائق السحر وأدواته، ولا هم صنّاعه ومهرته، وبالتالي لا يعرفون حقيقته، بخلاف السحرة الذين دأبوا هذا العمل القبيح واستمروا به وأوهموا أنفسهم به، حتى دفعهم ذلك إلى تخيل أنهم قادرون على معارضة نبي الله موسى ﷺ.

وجاءت معجزته ﷺ لتحدي - ليس البسطاء الذين صدقوا السحرة - وإنما السحرة أنفسهم، لأنهم أصدق إدراكاً بما يصنعون من غيرهم، وبثبت للعقول جميعاً بطلان السحر، لكنه لا يتحدى إلا من مهر به، لا من صدقه لأنه مخدوع فيه.

ويأتي القرآن الكريم ليصور هذا المشهد الذي تمثلت شخصياته في فرعون والسحرة ومن آمن بهم، ونبي الله موسى ﷺ ومن صدقه وآمن به في يوم جُمع له القوم ليشهدوا مصرع رسالة موسى ﷺ المأمول .. ولكن هيهات .. هيهات!!!

ويبين القرآن الكريم استهلال السحرة بإيقاع السحر بناءً على موافقة موسى ﷺ

(إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا جبالهم وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى. فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى).

وكان السحرة على أمل إرهاب موسى ﷺ وتعجيزه، وتمنوا أن يكونوا هم الذين يمتلكون زمام المبادرة لمحاولة التأثير على الناس، وإيجاد واقع نفسي يؤثر على اتخاذ القرار، ولم يكونوا يتوقعوا أن تدور الأرض دورتها، ويكونوا هم الخصم الأضعف والأوهي!!!

وبالفعل يلقي السحرة سحرهم، فخيل إلى الناس وإلى موسى ﷺ أنها تسعى .. ويتوجس موسى ﷺ خيفة .. ولكن الله تعالى يهدئ من روعه "لا تخف إنك أنت الأعلى"، وعندما ألقى ما في يده "العصا" إذا بها حية تسعى على الأرض سعيًا حقيقياً لا كسعي ما ألقاه السحرة .. بل إنها تلقف ما صنعه هؤلاء السحرة وتأكله فلم يعد له أثر، وبقيت هي وحدها على الأرض، ثم أعيدت عصا مرة أخرى بقدرة الله تعالى.

والشاهد أن الله تعالى راعي مستوى إدراك السحرة وأقنعهم بطريقة عملية ببطلان ما يصنعون، وصدق ما جاء به موسى ﷺ حتى آمنوا وكانوا أشد الناس إيماناً به، وتحذوا فرعون ولم يبالوا بتهديداته ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْيَأْسِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٦) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئِينَ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقٍ﴾ (١).

فلم يتحدث عنهم القرآن الكريم - وهم أهل دراية بالسحر - حديثه عن غيرهم الذين لا يعرفون حقيقته، وإن كان هذا لا يمنع من إمتاع بعضهم ومؤانسته، فهو خطاب إلهي، تأخذ العقول.. كل منها بقدر ما أوتي من علم وحكمة، وتفكير وإدراك.

(١) سورة طه (٧٢، ٧٣).

وهذه طبيعة خطاب الخاصة، وخطاب العامة في القرآن الكريم، ومما يؤكد هذا ما قاله د/ عبد الله دراز: (فهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب الأذكياء لجثتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها من بيانك، أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقي إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، وإلى السوق والمملوك، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾^(١).

وهكذا يتضح مدى أهمية هذه القاعدة المنهجية الدعوية الاستدلالية في نصب الأدلة وإنشائها لتراعي ملكات الإنسان وطاقاته وقدراته، ومراتب إدراكه، وتفاوت عقله من حيث دقة الفهم، وسطحية النظرة.. وعمق التأمل.. وظاهرية الفكرة، ومن حيث مراعاة خلفياته الفكرية الخصبية والضحلة، وعن تلك التي تعرب عن ذكائه أو تفصح عن غبائه.

إنه منهج يتعامل مع هذه المراتب، ويراعي تفاوتها، فلم يأت لمرتبة دون أخرى، ولم يتوجه إلى طائفة الأذكياء دون الأغبياء، إن كل العقول تظهر فيها شارات المعاني الدلالية، وإن اختلفت في إدراكها وتفاوتت في فهمها.

(١) النبأ العظيم: د. عبد الله دراز (ص ١١٣) مرجع سابق.

وهذا أدعي لتقبل تلك العقول قضايا الدعوة والانفتاح عليها، وعدم الانغلاق
دونها، الأمر الذي يتطلب من الدعاة إعادة التفكير في مناهج دعوتهم، وعدم
الاهتمام بالمتقفين دون العامة وبالأذكياء دون الأغبياء.

المبحث التاسع

فساد الحكم ناشئ عن فساد التصور

مما لا يقبل الجدل أو النقاش، وما لا يختلف عليه اثنان، أن الحكم يدور مع التصور وجودًا وعدمًا، وصحة وخطأ، وقوة ضعفًا وإثباتًا ونفيًا، وأخذًا وردًا، وقبولًا ورفضًا، واعترافًا وإنكارًا.

وهذه واحدة من مسلمات النظر السليم، وشارة من شارات الحكمة وحسن الدلالة.

لذا نجد القرآن الكريم لا يكتفي فقط بإثارة تلك القضية في العقول، وإنما يجعلها مفردة من مفرداته المنهجية فيما يتعلق بأحد أخطر المناهج في الإثبات والنفي، وبناء الأحكام والأدلة، وهو منهج الاستدلال، فقد جاءت الأدلة القرآنية لتبين هذه القيم الثبوتية، وأثرها في التصور، وإصدار الأحكام.

ويقينًا مثلًا هو بديهي أن التصور إذا جرد من معوقات الإدراك، وتشويش الأفكار، وتغيب العقل ينبثق عنه حكم صحيح، أما إذا ما تاه العقل في ضلالات الاعتقاد، وغياهب الفكر، ومأسن النظر، وركب متن الشطط، فلن يعود من رحلته إلا خاسئًا.. خاسرًا، ولم ينبثق عنه إلا تصور فاسد، وعبارات تائهة، ونظرات ضلت الحكمة، ونتائج جافت المنطق، وأحكام تصطدم بالواقع، فتعجز عن الانسجام معه، بل عن التعبير عنه!!

تأصيل هذه القاعدة:

ومما يؤصل هذه القاعدة ما يلي:

[١] قول الله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَسْأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا

أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عِهْدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٢٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومُ آلِيسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَتَهْرُ تُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٢٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٢٤﴾

[٢] وقوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢).

[٣] وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (٣).

[٤] وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ طَآ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٥﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٦﴾ (٤).

دلالات التأصيل:

عندما نتأمل هذه الآيات الكريمة نجدها تدور حول عدة معان تبرز قيمة

(١) سورة الزخرف (٤٥ - ٥٥).

(٢) سورة الزمر (٦٧).

(٣) سورة الأعراف (١٢٧).

(٤) سورة الأعراف (٨٠ - ٨٢).

التصور الصادق، وتبين فداحة خطورة التصور الفاسد، فصحة التصور مرهون به صحة الاعتقاد، واستقامة الخلق، واعتدال العقل، وصفاء الباطن، وانصباط الظاهر.

ولعل هذا يتمثل فيما يلي:

١ - إن خطأ الإنسان في تصور طبيعة الأشياء يقلب موازين الحق، ويذري بالقيم والمبادئ والمثل .. إنه يحصر الإنسان في دائرة المتناقضات، بل يجعله أميل إلى النقيض السالب منه إلى النقيض الموجب إن لم يكن يكفر به أو يجحده، إنه يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، يرى الإيمان كفرًا والكفر إيمانًا، يرى العدل ظلمًا والظلم عدلاً يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً .. بل إنه يذهب إلى ما هو أبعد من هذا: إلى إنكار ألوهية الحق سبحانه وتعالى وادعاء ألوهية البشر .. إنكار ألوهية الخالق، وادعاء ألوهية المخلوق!! إنكار ألوهية الرب وتوهم ألوهية المربوب !! إنكار الباقي وإثبات الفاني !! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وهذا مدلول الآيات الكريمة السابقة والتي عرضت لمواقف من قصة فرعون تبدي خطورة انحراف التصور على العقيدة، وقد تمثل هذا في صورتين:

أولاهما: انحراف عقيدة الملائ من قوم فرعون إذ تصوروا نبوة نبي الله موسى ﷺ إفساداً في الأرض، لأنها تنكر عليهم عبادتهم الباطلة وتدعوهم إلى عبادة الله الحق سبحانه وتعالى .. وقد مثل هذا الانحراف في التصور ضغطاً نفسياً واجتماعياً قبيحاً على الملائ، إذ دفعهم إلى الضغط على فرعون، لضرورة التخلص من دعوة موسى ﷺ والقضاء عليه (أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك).

ويبدي ضغط الملائ الذي صورته القرآن الكريم أن فرعون كان يعبد ألهة من دون الله بدليل "ويذرك وآهتك".

وفي إجابة مدفوعة بالهوى، ناتجة عن خطأ التصور يقول فرعون "سَنَقْتَلِ أَبْنَاءَهُمْ .. وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ".

وهكذا دفع انحراف التصور الملائم من قوم فرعون إلى محاولة استئصال النبوة، وواد الدعوة إلى الله تعالى، والتخلص من الدعاة المصلحين!

وفي ظل هذا تستطيع أن تتخيل البديل لهذا الصالح وخطورته على المجتمع .. إنه تأليه البشر .. وقتل المؤمنين الأبرياء!!

ثانيتهما: انحراف عقيدة فرعون نفسه بانحراف تصوره، إذ غره ملكه وغره استخفافه قومه، وطاعتهم له، فادعى الألوهية، وقال لهم "أنا ربكم الأعلى" .. "ما علمت لكم من إله غيري" .. "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين".

ياله من تصور فاسد!! هل كل من ملك ملكاً أو حكم قومًا يكون إلهًا؟! لو كان الأمر كذلك لرأى الناس آلهة كثيرة متعاقبة تحكمهم فتموت فيشيّعونها، ثم ينصبون آلهة أخرى مكانها، وينتظرون موتها لتنصيب أخرى وهكذا.

أنظر إلى روعة المنهج الاستدلالي وهو يربط صحة الحكم بصحة التصور، وفساد الأول بفساد الثاني، وكيف أنه لا يمكن فصم عُرى كل منهما عن الآخر.

٢ - كما يبدو هذا بجلاء ووضوح في قصة نبي الله لوط عليه السلام مع قومه، إذ تبين كيف دفعهم فساد تصوره، وتخبط عقولهم إلى ضرورة التخلص من لوط عليه السلام وآله، لا لشيء إلا لأنهم رفعوا لواء الإيمان، وأرادوا تطهير المجتمع من الفاحشة، والارتقاء به من البهيمية إلى الإنسانية المهذبة، وهذا مدلول قوله تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ). وما يقال في هذا يقال في سابقه.